إتحاف الجنان
بتفسير أم القرآن

د / إبراهيم توفيق الديب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
بكلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، ونزله تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد خاتم الأنبياء ، وسيد الأصفياء ، وإمام الأتقياء ، أيده الله بالآيات البينات والمعجزات الباهرات ، ومحا به ظلمات الشرك والطغيان ، وأقام دلائل التوحيد بالحجة والبرهان ، وهدى قلوبا غلفا وفتح آذاناً صما وبصر أعينا عميا ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الغر الميامين الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم أولو الألباب وأولئك هم المفلحون .

أما بعد : فإن القرآن الكريم لما كان أساس الإسلام ودستوره الذى وضعه الله لعباده ، ينظم لهم شئون الحياة ، ويبين لهم الحقوق والواجبات ، ويهديهم للتى هي أقوم فى العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات : « إن هذا القرآن يهدى للتى هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً »[1] ، وأدرك المسلمون عظم شأنه وأهميته البالغة فى تنظيم حياتهم ، وتقويم أخلاقهم ، وتهذيب سلوكهم ، وتوصيلهم إلى سامى مقصودهم ، إحتفوا به إحتفاء جليلا وعظمت عنايتهم به وتعهدوه بالحفظ بكل وسائله ، وتسابق إلى تفسيره وإستخراج دقائقه ، وبث كنوز حقائقه من علمائهم سلفا وخلفا من وجد فى نفسه — بحق — الأهلية لذلك العمل الطيب العظيم ، ولايزالون يولونه عنايتهم ويشمرون له ساق الجد والرعاية ، ويستخرجون

---

(١) ٩ سورة الإسراء .

منه بقدر طاقتهم درر فوائده ،وجواهر قلائده ، فهو المنبع الثر الذى لايغيض. والكتاب الخالد الذى لا يبيد ، « هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن إبتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ،وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لاتزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ، ولايشبع منه العلماء ، ولايخلق على كثرة الرد ، ولاتنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به[1] ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم »[2] .

ولا يعرف فى تاريخ العالم كله من لدن أرخ الناس كتاب بلغت عليه الشروح والتفاسير والأقوال والمصنفات المختلفة ما بلغ من ذلك على القرآن المجيد ولاشبهها به ولاقريباً منه .

وقد أجهد كل مفسر نفسه فى خدمة القرآن وقدم قصارى مالديه أداء للأمانة وتبليغاً للرسالة ، وتنوعت كتب التفسير ومناهجها تبعاً لثقافة المفسرين ومشاربهم ومذاهبهم .

فمنهم من توسع فى الجانب الفقهى كالقرطبي ، ومن توسع فى الجانب الكونى والفلسفى والعقدى كالفخر الرازى ، ومن توسع فى الجانب الإعرابى

---

(١) ١ ، ٢ سورة الجن .

(٢) أنظر الحديث بطوله والتعليق عليه فى ج ٤ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ أبواب فضائل القرآن باب ما جاء فى فضل القرآن سنن الترمذى ، و ج ٢ ص ٤٣٥ كتاب فضائل القرآن باب فضل من قرأ القرآن سنن الدارمى ومقدمه تفسير القرطبي ص ٤ وهو حديث مرفوع مروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه

والقراءات كأبي حيان ، ومن توسع في الجانب البلاغي وإظهار إعجاز القرآن كالزمخشري .

ومنهم من فسر القرآن تفسيراً واضحاً مستقيما ثم أعتقد كمفسري أهل السنة .

ومنهم من أعتقد ثم فسر القرآن ونزل آياته على معتقده لاويا أعناقها غير عابىء بما جاء في آيات آخر مفسراً لما هو بصدد تفسيره وضاربا بتفسير النبي ﷺ وآله وسلم لبعض الآيات عرض الحائط كمفسري المعتزلة والشيعة والخوارج .

مع أن السبيل المثلى والطريقة الفضلى في التفسير أن يختار المفسر من ثقافته الواسعة وتبحره في كل علم من العلوم القدر الذي به يتضح معنى الآية ويستبين مرماها ومغزاها فيذكره ، ولا يتناسب أن يتوسع في جانب علمي على حساب جانب علمي آخر .

كما أنه يجب عليه أن يجرد نفسه من كل هوى مذهبي ويفسر الآية تفسيراً واضحاً بينا واضعا في إعتباره تفسير القرآن بالقرآن وتفسير النبي ﷺ وآله وسلم لبعض الآيات ثم يأخذ بعد ذلك ما توحي به الآية من عقائد وأحكام شرعية مسلما به .

هذا ولما من الله علي بدخول الأزهر وتخرجت منه وكنت من حملة القرآن العظيم وحفظته والمشتغلين بدراسته والوقوف على معرفة علومه الشريفة ، وأسراره المنيفة ، شرعت في تفسير ما يسره الله من القرآن خدمة لكتابه ، ونشرا وتعريفا بلبابه ، مؤثرا إبراز المعاني بما يحقق الغاية دون دخول في متاهات العلوم الأخرى لأن لكل علم ميدانه الفسيح الخاص به .

وبدأت بسورة الفاتحة لأنها فاتحة القرآن الكريم وأول سورة في المصحف ،

وجامعة لأمهات المسائل المبثوثة فى القرآن ، وأساسه وأمه ، وإجتمع فيها مالم يجتمع فى غيرها من السور، ولذا إختارها الله تعالى ليرددها المسلم ويكررها فى الصلاة عدة مرات فى كل يوم وليلة .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجمع المسلمين على كتابه ، ويجعله قوت قلوبهم ونور أبصارهم وشفاء صدورهم ومادة حياتهم ، وقوام سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، ويكتب لعملى هذا تأييدا وتوفيقا من عنده ، ويمن على من فضله وكرمه باتمامه ، ويجعلنى أهلا للقيام بواجبى نحو القرآن الكريم ، وينفع بى وبما أكتب الإسلام والمسلمين ، ويوفقنى لخدمة العلم والدين ، إنه ولى النعمة والتوفيق ، والهادى إلى أقوم الطريق .

تفسير سورة الفاتحة

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

يجدر بنا قبل الشروع فى تفسير هذه السورة الكريمة المباركة أن نتكلم باختصار عن أمور هامة تتصل بها اتصالا وثيقاً وتعد توطئة وتمهيداً لتفسيرها وهى :

الأمر الأول : وقت نزولها ومكانه :

اختلف العلماء فى زمان ومكان نزول هذه السورة ، ففريق يرى — وهم أكثر العلماء المحققين والأئمة المعتبرين — أنها نزلت بمكة ، بل قالوا انها من أوائل ما نزل من القرآن بمكة المكرمة فقد نزل صدر سورة العلق وهو خمس آيات ، ثم نزلت آيات متفرقة من سورة القلم والمزمل والمدثر ، ثم نزلت سورة الفاتحة بتمامها . ومن هـــذا الفريق الإمام عبد الله بن عباس وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما وقتادة وأبو العالية رفيع بن مهران الرباحى وعطاء بن جبير وغيرهم ، وعلى هذا فالسورة مكية .

وفريق آخر يرى أن هـذه السورة نزلت بالمدينة المنورة . ومن هذا الفريق أبو هريرة رضى الله عنه وعطاء بن يسار والزهرى ومجاهد وغيرهم ، وعلى هذا فالسورة مدنية .

وفريق ثالث يرى أن هذه السورة نزلت مرتين : مرة بمكة حين فرضت الصلاة ليلة الإسراء والمعراج ، ومرة ثانية بالمدينة حين حولت القبلة من بيت

المقدس إلى الكعبة[1] ونزلت مرتين تعظيما لشأنها وبيانا لأهميتها ، وعلى هذا فالسورة مكية ومدنية .

والبعض يرى — كما نقل القرطبي — أن نصفها الأول نزل بمكة ، ونصفها الثانى نزل بالمدينة .

والرأى الأول أصح لقوله تعالى فى سورة الحجر : « ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم[2] والمراد بالسبع المثانى سورة الفاتحة كما جاء فى الحديث الصحيح المرفوع الآتى ذكره ، وسورة الحجر مكية بالإجماع فذكر القسم فى الآية السابقة والتأكيد باللام وقد والإتيان بالفعل الماضى مع ما فى الآية من إظهار امتنان الله على عبده ورسوله محمد ﷺ دليل على أن سورة الفاتحة نزلت بمكة قبل سورة الحجر .

ولا يعقل أن يقيم الرسول ﷺ فى مكة ثلاثة عشر عاما وتفرض عليه وعلى أصحابه فيها الصلاة ويصلون بغير سورة الفاتحة أو بنصفها إلى ما بعد

---

(١) بعد هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة حولت القبلة من الكعبة إلى بيت المقدس بضعة عشر شهراً ثم عادت إلى الكعبة كما كانت ، وحولت إلى بيت المقدس هذه المدة ليبتلى الله المسلمين ويعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وليستميل الله أهل الكتاب إلى الإسلام ويؤلفهم ويحببهم فى الدخول فيه ، وليثبت إثباتاً عملياً انتقال النبوة منهم — لسوء سلوكهم — إلى العرب ، وليحظى الرسول ﷺ بشرف التوجه إلى القبلتين ، وليكون ذلك حجة على أهل الكتاب لموافقته ما جاء عندهم ونزل عليهم كما قال تعالى فى سورة البقرة — ١٤٤ — : « وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم » .

(٢) ٨٧ سورة الحجر .

هجرتهم إلى المدينة مع أنه « لا صـــلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب »[1] . والفاتحة لا تتنصف .

ثم إن آيات هذه السورة تضمنت على وجه الإجمال مقاصد الدين من إثبات للتوحيد والنبوة والمعاد والأحكام الشرعية والوعد والوعيد على الرغم من قصر حجمها ووجازة ألفاظها وهذه سمة من سمات السور المكية .

ويشهد لما تقدم قول الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه : « نزلت فاتحة الكتاب بمكة من كنز تحت العرش » . وقول الإمام الحسين بن الفضل: « لكل عالم هفوة وهذه هفوة مجاهد لأن العلماء على خلافه »[2] .

وإن الصحابة الكرام أدركوا منذ نزول هذه السورة — بارشاد الرسول وتوجيهه وتذوقهم لما نزل من القرآن وتدبرهم لمعانيه — أنها فاتحة القرآن وصدره وأساسه وأمه ، وعرفوا فخامة شأنها وعلو قدرها وداوموا على قراءتها فى الصلاة وخارجها فلم يكونوا فى حاجة إلى بيان أهميتها وعظيم شأنها ولفت أنظارهم إليها بنزولها مرة ثانية .

---

(١) أنظر الحديث فى جـ ١ ص ١٨٢ كتاب الآذان باب وجوب القراءة للإمام والمأموم فى الصلوات كلها : صحيح البخارى ، و جـ ٢ ص ٢٦ كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة... إلخ : صحيح مسلم بشرح النووى ، وأخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والدارمى فى كتاب الصلاة من سننهم عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، وأخرجه أحمد فى مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أنظر ص ١٧ أسباب النزول للواحدى بتحقيق السيد صقر ، جـ ١ ص ١٧٧ تفسير الرازى ، جـ ١ ص ٣٨ الإتقان للسيوطى . وما قاله الحسين ابن الفضل عن مجاهد ينطبق على من رأى رأى مجاهد .

وإن القول بتكرر النزول ينكره كثير من العلماء خصوصاً تكرر نزول السورة لعدم الفائدة فيه فان نزول النص القرآني معناه ظهوره من عالم الغيب إلى عالم الشهادة والظهور به لا يقبل التكرر إذ أن ظهور الظاهر باطل كتحصيل الحاصل وإيجاد الموجود .

ومن قالوا بتكرر نزول هذه السورة حاروا في توجيه رأيهم والتماس فائدة من تكرر نزولها فمنهم من قال : نزلت أولا على حرف ثم نزلت مرة ثانية على حرف آخر كملك ومالك . ومنهم من قال : نزلت مرة ثانية بعد تحويل القبلة ليعلم أنها ركن في الصلاة كما كانت من قبل . ومنهم من قال : نزلت أولا بالبسملة ثم نزلت مرة أخرى بلا بسملة[1] .

وكل هذه التوجيهات والالتماسات من قبيل الرأي ولا دليل عليها ، فالأصح والأصوب في المسألة ما تقدم .

الأمر الثاني : عدد آياتها :

وعدد آيات هذه السورة سبع لقوله تعالى في سورة الحجر : ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم » ، والسبع المثاني هي سورة الفاتحة ، وانعقد الإجماع على هذا،قال الحافظ ابن كثير القرشي الدمشقي:هي سبع آيات بلاخلاف، وقال عمرو بن عبيد : هي ثماني آيات ، لأنه جعل «إياك نعبد » آية مستقلة، وقال حسين الجعفي هي ست آيات ، وهذان القولان شاذان اهـ [2] .

الأمر الثالث : أسماؤها :

ولهذه السورة أسماء كثيرة ذكرها العلماء والمفسرون منها :

---

(١) أنظر جـ ١ ص ٢٦ حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي .
(٢) أنظر جـ ١ ص ٨ تفسير ابن كثير .

١ — الفاتحة أو فاتحة الكتاب : وسميت بهذا الإسم لأنها مبتدأ القرآن ومفتتحه تلاوة باللسان وكتابة فى المصاحف ، فهى فاتحة لما يعقبها من سور القرآن فى القراءة والتعليم وكتابة المصحف ، وقد اشتهرت السورة بهذا الإسم منذ نزولها وصار علماً بالغلبة على تلك الآيات السبع الطيبة المباركة وأكثر أسمائها تداولا على الشفاه وجريانا على الألسنة .

(ب) أم القرآن أو أم الكتاب : وسميت بهذا الإسم لتقدمها على سائر سور القرآن تقدم الأم على أولادها ، ولتضمنها واحتوائها على وجه الإجمال جميع الأغراض والمقاصد التى جاءت مفصلة ومبسوطة فى السور القرآنية الأخرى ، وهو أمر مألوف ومعهود عند العرب ، قال ابن جرير الطبرى إمام المفسرين : والعرب تسمى كل أمر جامع أموراً ، وكل مقدم له توابع تتبعه « أما » فتقول للجلدة التى تجمع الدماغ « أم الرأس » ، وتسمى لواء الجيش ورايتهم التى يتجمعون تحتها « أما »[1] . ا هـ

(جـ) السبع المثانى : وسميت بذلك لكونها سبع آيات بالإجماع ، وتثنى أى تكرر قراءتها فى كل صلاة فمفرد « المثانى » مثنى ، مأخوذ من تثنية الشيء بمعنى رد بعضه على بعض وتكرره .

(د) القرآن العظيم : وسميت بذلك لكثرة قراءتها واشتمالها مع الإيجاز على جميع أغراض القرآن ومقاصده ، أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة

---

(١) انظر جـ ١ ص٤٧ تفسير الطبرى ، و جـ ١ ص١٧٥ تفسير الرازى ، ويطلق كذلك لفظ « أم » على الآيات القرآنية المحكمة قال تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب . . . » الآية . . . (٧ سورة آل عمران) .

رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال فى أم القرآن : هى أم القرآن وهي السبع المثانى وهى القرآن العظيم[1] .

(ه) الصلاة : وسميت بذلك لأهميتها إذ الصلاة لا تصح إلا بها ولما جاء فى الحديث الصحيح القدسى : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ماسأل .. » الحديث[2] والفاتحة جزء من الصلاة فهو من باب تسمية جزء الشىء باسم كله .

وتسمى السورة كذلك سورة الكنز ، وسورة الأساس ، وسورة الكافية ، وسورة الوافية ، وسورة الشفاء ، وسورة الرقية ، وسورة الحمد ، وسورة الشكر ، وسورة الدعاء . . . .

إلى غير ذلك من الأسماء التى جمعها الإمام جلال الدين السيوطى فى (الإتقان) فى النوع السابع عشر وأوصلها إلى خمسة وعشرين إسماً معللا لكل اسم ، ولا شك أن التعليل بذكر سبب للتسمية لا ينفى غيره ، كما أن تعدد الأسماء لمسمى واحد يدل على عظم المسمى وعلو قدره وسمو مرتبته والاهتمام البالغ به .

---

(١) انظر ج ٢ ص ٤٤٨ المسند . وأخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب التفسير تفسير سورة الحجر ج ٦ ص ١٠٢ .

(٢) انظر الحديث بطوله فى ج ١ ص ٢٧ كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة : صحيح مسلم بشرح النووى وج ١ ص ٢١٧ كتاب الصلاة باب من ترك القراءة فى صلاته بفاتحة الكتاب : سنن أبى داود ، و ج ٤ ص ٢٧٠ أبواب تفسير القرآن : سنن الترمذى . وأخرجه النسائى وابن ماجه فى سننهما وأحمد بن حنبل فى مسنده ، ومالك فى الموطأ وهو مروى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

وينبغي أن تعلم أن أسماء السور كلها توقيفية بمعنى أن الله سبحانه وتعالى هو الذي سمى كل سورة باسمها ووقف جبريل على اسم كل سورة ، ثم وقف جبريل عليه السلام الرسول محمداً ﷺ على اسم كل سورة ، ثم وقف الرسول محمد أصحابه الكرام على اسم كل سورة ... حتى وصلت أسماء السور إلينا على الوضع الذي هي عليه الآن ، فاسم كل سورة توقيفي من الله تعالى وليس من وضع جبريل أو الرسول محمد أو أحد من الصحابة العظام .

كما ينبغي أن تعلم أن السورة قد يكون لها اسم واحد توقيفي وهذا هو الغالب في سور القرآن ، وقد يكون لها اسمان توقيفيان أو أكثر كما في سورة الفاتحة وقد يكون لها أسماء توقيفية وأسماء اصطلاحية — هي بمثابة الصفات — خلعها بعض الصحابة أو التابعين عليها استنتاجاً من قراءتهم لها .

والمعيار الذي به نميز الاسم التوقيفي من غيره ورود الاسم في حديث صحيح معتمد فان ورد في حديث صحيح معتمد كان اسماً توقيفيا ، وإن لم يرد كان اسماً اصطلاحياً أو وصفاً للسورة .

الأمر الرابع : فضلها ومنزلتها

وقد ورد في بيان فضل هذه السورة وعظم منزلتها أحاديث كثيرة منها ما أخرجه البخاري بسنده عن أبي سعيد بن المعلى قال : « كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه ، فقلت يارسول الله إني كنت أصلي ، فقال : ألم يقل الله « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم »[1] ثم قال لي : لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد ، ثم أخذ بيدي فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم

[1] ٢٤ سورة الأنفال .

سورة فى القرآن ، قال : الحمد لله رب العالمين ، هى السبع المثانى ، والقرآن العظيم الذى أوتيته[1].

وما أخرجه أحمد والترمذى ـ وصححه ـ بسندهما من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال له : أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل فى التوراة ولافى الإنجيل ولافى الزبور ولافى الفرقان مثلها ، ثم أخبره أنها الفاتحة[2] .

وأخرج مسلم بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك ، فقال هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته[3] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب التفسير باب ما جاء فى فاتحة الكتاب ج ٦ ص ٢٠ وباب تفسير سورة الحجر ص ١٠٢ وفى كتاب فضائل القرآن باب فاتحة الكتاب ص ٢٣١ . وأخرجه الدرامى فى سننه فى كتاب الصلاة باب أم القرآن هى السبع المثانى ج ١ ص ٣٥٠ .

(٢) أنظر ج ٥ ص ١١٤ المسند ، و ج ٤ ص ٢٣١ أبواب فضائل القرآن باب ما جاء فى فضل فاتحة الكتاب : سنن الترمذى ، و ص ٧٣ كتاب الصلاة باب ماجاء فى أم القرآن : الموطأ للامام مالك ، وأخرجه الدماتى فى سننه .

(٣) ج ٢ ص ٤٥٨ كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة : صحيح مسلم بشرح النووى .

وأخرج مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج (ثلاثا) غير تمام ، فقيل لأبي هريرة : إنا نكون وراء الإمام ؟ فقال : اقرأ بها في نفسك فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، فاذا قال العبد . « الحمد لله رب العالمين » قال الله تعالى « حمدني عبدي » ، وإذا قال : الرحمن الرحيم » قال الله تعالى : « أثنى على عبدي » ، وإذا قال مالك يوم الدين » قال : « مجدني عبدي » وقال مرة : « فوض إلى عبدي » ، فاذا قال : « إياك نعبد وإياك نستعين » قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فاذا قال : أهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » قال . « هذا لعبدي ولعبدي ما سأل »[1] .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي يطول سردها والتي تبين عظم هذه السورة ورفعة شأنها وفخامة أمرها وأنها أشرف وأسمى وأخير سورة في القرآن كله ، كما تبين أسماءها التوقيفية التي نزلت لها وسميت بها .

وتفضيل بعض السور على بعض — وكذلك الآيات — أمر اختلف فيه العلماء وذهبوا فيه مذهبين :

الأول : أنه لا يجوز تفضيل بعض القرآن على بعض لأن الكل كلام الله سبحانه وتعالى وتفضيل بعض القرآن على بعض يشعر بنقص المفضول ودنوه وكل كلام الله تعالى كامل لا نقص فيه ولا تفاوت .

وممن ذهب هذا المذهب أبو الحسن الأشعري وأبو بكر الباقلاني وأبو حاتم محمد بن حبان البستي ويحيى بن معين وغيرهم .

---

(١) سبق تخريجه في ص ١٢ .

الثاني : أنه يجوز تفضيل بعض القرآن على بعض لكثرة ورود الأحاديث الصحيحة الصريحة فى الدلالة على تفضيل بعض السور والآيات على بعض حتى قال ابن الحصار المالكي كما نقل القرطبي : « عجبي ممن يذكر الاختلاف مع هذه النصوص » .

وممن ذهب هذا المذهب إسحق بن راهويه وأبو بكر بن العربى وابن الحصار «والحليمى والغزالى والقرطبي وغيرهم من المفسرين والمتكلمين .

ويمكن الجمع بين المذهبين بأن تقول .

إن تفضيل بعض القرآن على بعض ممتنع من حيث ذاتية القرآن ونصه لأن القرآن كلام الله تعالى وقد بلغ كله فى الإعجاز والقـــدر النهاية والغاية ، ولعل أصحاب المذهب الأول نظروا إلى ذاتية النص القرآنى فمنعوا التفضيل .

وإن تفضيل بعض القرآن على بعض جائز من حيث النظر إلى أمور آخر زائدة على ذاتية نص القرآن :

كاختلاف مدلول السور فمثلا سورة الفاتحة وهي بضع وعشرون كلمة جمعت مقاصد القرآن وأغراضه وموضوعاته واشتملت على مالم يشتمل عليه غيرها من السور وصارت أم القرآن العظيم وأساسه وكنزه وسره .

واختلاف مدلول الآيات فمثلا ما اشتمل عليه قوله تعالى : « وإلهكم إله واحدلاإله إلا هو الرحمن الرحيم[1] » وآية الكرسى[2] وأواخر سورة الحشر وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانيته تعالى واتصافه بصفات

---

(١) ١٦٣ سورة البقرة .

(٢) ٢٥٥ سورة البقرة .

الكمال ونعوت الجلال ليس موجوداً في سورة المسد : « تبت يدا أبى لهب وتب ... إلخ » ، وكذلك ليس مدلول قوله تعالى : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن »[1] كمدلول قوله : « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ....» إلخ[2] .

واختلاف الأجر والثواب وتفاوته بالنسبة إلى بعض السور والآيات ، وقد وردت أحاديث صحيحة تفيد أن القارىء لسورة كذا أو آية كذا له أجر كبير وثواب كثير يزيدعن قراءته لسورة أو آيات أخرى غيرمنصوص على أجرها .

فالتفضيل إنما هو بالمعانى العجيبة السامية والمدلولات العظيمة العالية وكثرتها وعظم أجر الآيات وثوابها لا من حيث ذات النص .

ولعل أصحاب المذهب الثانى نظروا إلى هذه الأمور الأخر الزائدة على ذاتية النص القرآنى فقالوا بالمفاضلة .

الأمر الخامس فى الاستعاذة : وقتها ، حكمها ، لفظها ، تفسيرها .

أمر الله تعالى من يشرع فى قراءة شىء من القرآن أن يستعيذ به من الشيطان قال تعالى : « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم »[3] أى إذا أردت أن تقرأ فاستعذ ، فأوقع الفعل الماضى موقع المستقبل لثبوته وتحقق وقوعه كما فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى

(١) ٣ سورة الحديد .
(٢) ١٤٣ سورة الأنعام .
(٣) ٩٨ سورة النحل .

الصلاة فاغسلوا وجوهكم ... » الآية[1] أى إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاغسلوا ...

والقول بتقديم الاستعاذة على القراءة قول الجمهور وهو الراجح والمعتمد.

وذهب بعض العلماء كداود الظاهرى وابن سيرين وابراهيم النخعى إلى أن الاستعاذة تكون بعد الفراغ من القراءة أخذا بظاهر النص .

وهو مذهب مردود لأن رسول الله ﷺ وهو القدوة الطيبة والأسوة الحسنة كان يتعوذ قبل القراءة .

وقد اختلف العلماء فى حكم الاستعاذة : فذهب بعضهم كعطاء بن أبى رباح إلى أن الاستعاذة واجبة لكل قراءة ولو فى الصلاة لتحقيق الغرض منها وهو درء شر الشيطان ودفعه وما دام دفع الشيطان واجباً فتكون واجبة إذ مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وذهب ابن سيرين إلى أن التعوذ مرة واحدة فى العمر يكفى فى إسقاط الوجوب على المرء .

وذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة مندوبة ومستحبة لأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يعلم الأعرابى الذى جاءه الاستعاذة ولم يأمره بها فى جملة أعمال الصلاة[2] . ولأن درء شر الشيطان ودفعه يتحقق بذكرها ولو كانت ندبا ، وهذا هو الراجح .

---

(١) ٦ سورة المائدة .

(٢) أنظر الحديث بقصته فى جـ ١ ص ١٩٠ كتاب الآذان باب أمر النبى ﷺ الذى لا يتم ركوعه بالإعادة : صحيح البخارى ، وجـ ٢ ص ٣١ كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة إلخ صحيح مسلم بشرح النووى ، وأخرجه ابن ماجه والنسائى فى سننهما وهو مروى عن أبى هريرة .

أما الاستعاذة فى الصلاة فابن سيرين والنخعى وغيرهما يرون التعوذ فى فى الصلاة فى كل ركعة قبل القراءة امتثالا لأمر الله فى الاستعاذة على العموم.

وأبو حنيفة والشافعى يريان التعوذ فى الصلاة فى الركعة الأولى ويعتبران قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة فلا تحتاج إلى تكرار الاستعاذة .

ومالك يرى التعوذ فى قيام رمضان ولا يراه فى الصلاة المفروضة[1] .

وقد أجمع العلماء على أن الاستعاذة ليست من القرآن الكريم ولا آية منه ، واختلفوا فى لفظها ونصها فقال الجمهور : إن لفظها (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ، وهذا هو الموافق لقوله تعالى : «فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ولما حكى الله عن أم مريم قولها : « وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم »[2] ، ولما أخرجه ابن ماجه وأبو داود بسندهما عن جبير بن مطعم قال : «رأيت رسول الله ﷺ حين دخل فى الصلاة قال : « اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » قال - أى عمرو بن مرة أحد الرواة - : همزة : الموتة - يعنى الجنون أو الخنق - ونفثه : الشعر ، ونفخه : الكبر[3] ، ولما أخرجه أبو داود بسنده عن سليمان بن صرد قال : استب رجلان عند النبى ﷺ فجعل أحدهما تحمر عيناه وتنتفخ أوداجه فقال رسول الله ﷺ : إنى لأعرف كلمة لو قالها هذا لذهب عنه الذى يجد : (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) . . الحديث .

---

(١) أنظر ص ٧٥ تفسير القرطبى .

(٢) ٣٦ سورة آل عمران .

(٣) أنظر جـ ١ ص ٢٦٥ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب الاستعاذة فى الصلاة : سنن ابن ماجه ، وجـ ١ ص ٢٠٣ كتاب الصلاة باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء : سنن أبى داود .

وأخرج أبو داود والترمذي نحوه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه[١] .

ومال بعض الشافعية والإمام أحمد إلى أن لفظها : (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) للجمع بين الآيتين الكريمتين وهما قوله تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ، « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم »[٢] .

ويجوز في غير الصلاة وفي غير البدء في قراءة القرآن أن يستعيذ المرء بكلمات الله التامات لورود روايات صحيحة في ذلك كقوله ﷺ فيما رواه مسلم وابن ماجه والترمذي وصححه بأسانيدهم عن خولة بنت حكيم السلمية: من نزل منزلا ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك[٣] .

أما تفسيرها : فـ (أعوذ) من عاذ يعوذ كقال يقول وهو لفظ مشتق من العوذ ، وأصله : أعوذ بسكون العين وضم الواو مثل : أقتل ، استثقلت الضمة على الواو فنقلت إلى العين وبقيت الواو ساكنة ، ومصدره : عوذ وعياذ ، والفرق بين العياذ واللياذ : أن العياذ يكون لدفع الشر ودرئه ومنه

---

(١) أنظر جـ ٤ ص ٢٤٩ كتاب الأدب باب ما يقال عند الغضب : سنن أبي داود ، وجـ ٥ ص ١٦٧ أبواب الدعوات باب ما يقول عند الغضب: سنن الترمذي .

(٢) الآية الأولى من سورة النحل ٩٨ ، والآية الثانية من سورة فصلت ٣٦ .

(٣) جـ ٥ ص ٥٦٠ كتاب الذكر والدعاء ... باب الدعوات والتعوذ : صحيح مسلم بشرح النووي ، و ج ٢ ص ١١٧٤ كتاب الطب باب الفزع والأرق وما يتعوذ منه : سنن ابن ماجه ، وجـ ٥ ص ١٦٠ أبواب الدعوات سنن الترمذي ، وروى نحوه عن أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما .

قوله تعالى : « وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون »[1] ، « وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون »[2] . أما اللياذ فيكون لطلب الخير وجلبه .

ومعنى (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ألتجىء إلى الله تعالى واستجير بجنابه وأتحصن بحصنه المنيع من الشيطان الرجيم أن يؤذينى ويصيبنى بضرر فى دينى أو دنياى فانى أقر بضعفى وعجزى وافتقارى التام إلى الله وأوقن بعظيم سلطانه وكامل قدرته على تحصيل كل الخيرات ودفع جميع الآفات ولا ملجأ منه إلا إليه .

فهى جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى إذ أن معناها الدعاء ، وفيها اعتراف العبد بعجز نفسه وإقرار بقدرة ربه عز وجل على دفع جميع الآفات والمضرات.

و (الشيطان) كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب ، ولفظه مشتق من الشطن وهو البعد لبعده عن رحمة الله تعالى وعن الهداية والرشاد ، ووزنه الصرفى (فيعال) فالنون أصلية .

وقيل مأخوذ من شاط يشيط إذا هاج وأحرق وبطل وهذه أفعاله ، ووزنه الصرفى (فعلان) فالنون زائدة .

ورجح «سيبويه» الاشتقاق الأول اعتماداً على كلام العرب لأنهم يقولون : تشيطن فلان إذا فعل أفعال الشيطان ، فهذا يدل على أنه مشتق من الشطن ، ولو كان مشتقا من شاط لقالوا : تشيط .

ومما يزيد رأيه رجحانا قول النابغة الذبيانى زياد بن عمرو :

---

(١) ٢٠ سورة الدخان .

(٢) ٩٧ ، ٩٨ سورة المؤمنون .

نأت بسعاد عنك نوى شطون   فبانت والفؤاد بها رهين

أى بعدت بها طريق بعيدة ، فهذا يدل على أنه مشتق من الشطن وهو البعد ولو كان مشتقا من شاط لقال : نوى شائطة .

(الرجيم) فعيل بمعنى مفعول أى المرجوم ، والرجم فى الأصل : الرمى بالحجارة وقد رجم إبليس بلعنة الله له وغضبه عليه وطرده من الجنة وإبعاده عن الخير كما جاء فى قوله تعالى له : « اخرج منها مذءوما مدحوراً » . . . الآية[1]، « فاخرج منها فانك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين »[2]، فمعنى المرجوم : الملعون المطرود من رحمة الله تعالى ومن كل خير .

وقيل : فعيل بمعنى فاعل أى الراجم لأن إبليس يرجم الناس ويرميهم بالإغواء والوساوس والشكوك .

وخص الله قراءة القرآن بطلب الاستعاذة مع أن الاستعاذة مطلوبة فى كل حال وفى كل شأن من الشئون لأن القرآن الكريم مصدر الهداية والخير وبحر العلوم والمعارف ، والشيطان مصدر الفسق والضلال ومبعث الغى والعصيان فهو يقف بالمرصاد لمن يريد قراءة القرآن ويثير أمامه الوساوس والشكوك ويشغله عن التفكر فيما يقرأه ويلفته عن فهمه وتدبره والنظر فيه ليفوت عليه الانتفاع بهدى الله وآياته البينات ، فأرشدنا الله الرءوف الرحيم بنا المنعم علينا إلى الاستعاذة وهى سلاح قوى حاسم نتسلح به قبل القراءة وسياج منيع نتحصن به بين يديها لننتفع بما أنزله الله إلينا ونسير على الصراط السوى المأمورين بالسير عليه والاستمساك به .

---

(١) ١٨ سورة الأعراف .

(٢) ٣٤ ، ٣٥ سورة الحجر .

وفى تقديم الاستعاذة على القراءة — فوق ماتقدم — طهارة للفم مما تعاطاه لسان المرء من اللغو والرفث وتطييبه لاستقبال كلام الله وتهيئة نفسه حتى تستقبل كلامه تعالى بصفاء لاتشوبه شائبة من الشيطان ، فتقديمها على القراءة من باب التخلية قبل التحلية .

وقد ورد فى فضل التعوذ أحاديث كثيرة ليس المجال مجال ذكرها وحصرها ومن أراد معرفتها والإطلاع عليها فليرجع إلى كتب السنة .

وبما تقدم نكون قد فرغنا من إلقاء الضوء على الاستعاذة وبيانها وانتهينا من الأمور الهامة التى لابد من ذكرها بين يدى تفسير السورة الطيبة الباسقة المباركة ، ونشرع الآن بعون الله وتوفيقه وحوله وطوله فى تفسيرها .

بسم الله الرحمن الرحيم

(بسم) جار ومجرور متعلق بمحذوف وهذا المحذوف مختلف فيه فالبصريون يقولون : المحذوف مبتدأ والجار والمجرور خبره ، وتقدير الكلام : ابتدائي بسم الله أي كائن بسم الله ، فالجار والمجرور متعلق بالكون والاستقرار .

والكوفيون يقولون : المحذوف فعل تقديره : ابتدىء أو أبدأ .

ويجوز أن تقدر الفعل المحذوف مناسباً لما تمارسه من عمل فاذا كنت تذاكر أو تشرب أو تنام كان التقدير : بسم الله أذاكر وبسم الله أشرب وبسم الله أنام .

وحذفت الألف من الخط اختصاراً وتخفيفاً على الكاتب لكثرة الاستعمال بخلاف ما لو جاء لفظ (اسم) في غير البسملة فانه يلزم إثبات الألف له خطا نحو قوله تعالى : « تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام »[1] ، « سبح اسم ربك الأعلى »[2] .

والباء للاستعانة على الأصح بدليل قوله تعالى : « قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ... »[3] الآية .

وفي جعلها للاستعانة دلالة على ضعف العبد وتسليمه في أول الفعل ومستهله

---

(١) ٧٨ سورة الرحمن .
(٢) ١ سورة الأعلى .
(٣) ١٢٨ سورة الأعراف .

لله وتوكله عليه وإقراره بعظمته وأن وجود فعله بقدرة الله وتوفيقه وعونه وتأييده لا به هو ، ورد على القدرية ومن على شاكلتهم ممن يدعون أن أفعالهم مقدورة لهم وحدهم .

وتقدير المحذوف الذى يتعلق به الجار والمجرور متأخراً هنا أوقع وأحرى بالقبول وأنسب بالمقام كما فى قوله تعالى : « بسم الله مجريها ومرساها »[1]، لأنه أهم وأدل على الاختصاص والحصر وأدخل فى تعظيم الله وتمجيده وأوفق للوجود فان اسمه سبحانه مقدم على الفعل ومستعان به والفعل لا يتم ولا يعتد به شرعا إلا بذكر اسمه أولا لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع »[2] ، فلو قدر المحذوف مقدماً على الجار والمجرور لما كان الابتداء باسمه تعالى ولفات الغرض من التبرك باسمه سبحانه أول النطق .

وللرد على المشركين الذين كانوا يتبركون بأسماء آلهتهم ويعظمونها ويبتدئون أعمالهم بذكرها والثناء عليها والاستعانة بها فيقولون : باسم اللات وباسم العزى ...

ودخلت الباء على (اسم) للاشارة إلى ما يترتب على ذكر اسمه تعالى من خير وبر وفضل وبركة على من ينطق بالبسملة .

والإسم : هو اللفظ الدال على المسمى سواء كان ذاتا أو صفة ، وقد اختلف النحاة فى اشتقاقه واختلف وزنه الصرفى تبعاً لاختلافهم :

---

(١) ٤١ سورة هود عليه السلام .

(٢) انظر الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٧٧ ، وكنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق للمناوى بهامش الجامع الصغير وهو مروى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

فالبصريون يرون أنه مشتق من السمو وهو الرفعة لأن المسمى يرتفع ذكره ويتميز باسمه وإذا كان اسمه مجهولا كان خاملا مغموراً ، فأصل (اسم) :

سمو كجزع حذف عجزه أي لام الكلمة للتخفيف الذى أوجبه كثرة الاستعمال وجيء بهمزة الوصل عوضاً عنها وتوصلا إلى النطق بالساكن مثل: ابن ، فصار وزنه الصرفى (افع) .

والكوفيون يرون أنه مشتق من السمة وهى العلامة لأن الإسم علامة مميزة للموضوع له فأصله : وسم حذفت منه الواو أي فاء الكلمة وجيء بهمزة الوصل توصلا إلى النطق بالساكن فصار وزنه الصرفى (أعل) .

والراجح رأى البصريين لأن تصغير اسم سمى وجمعه أسماء وأسامى ، وكل من التصغير والجمع يرد الأشياء إلى أصولها ، ولو كان أصله (وسم) كما يرى الكوفيون لقيل فى جمعه أوسام وفى تصغيره وسيم كما يقال فى عدةوعيدة.

ولأن دخول همزة الوصل على الإسم الذى حذف صدره وهو الفاء عوضاً عن المحذوف غير معهود فى كلام العرب ، وإنما المعهود فى كلامهم أن تكون همزة الوصل عوضاً عن لام الكلمة إذا حذفت مثل : اسم ، ابن . وأن تكون الهاء عوضاً عن فاء الكلمة إذا حذفت مثل : عدة ، زنة ، سعة .

(الله) : علم على الذات العلية تفرد به سبحانه وهو اسم غير صفة لأنك تصفه ولا تصف به ، ولأن صفاته تعالى تستلزم موصوفا تجرى عليه ولو جعلت كلها صفات للزم وجود صفات ليس لها اسم موصوف بها تجرى عليه وهذا غير جائز .

قال الإمام القرطبى : هذا الإسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها حتى قال بعض العلماء إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره ولذلك لم يثن ولم يجمع وهو

أحد تأويلي قوله تعالى : « هل تعلم له سمياً »[1] أى من تسمى باسمه الذى هو الله ، فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية المنعوت بنعوت الربوبية المنفرد بالوجود الحقيقى لا إله إلا هو سبحانه . أ . هـ[2] .

ومن خصائص هذا اللفظ العلم ـ الله :

(أ) أنه اسم جامع لكل الصفات مع دلالته على الذات المقدسة ، أما غيره من الألفاظ فليس جامعاً ولا شاملا فمثلا : إذا ما قلت يارحمن فانك تكون قد وصفته بالرحمة وحدها ، وإذا ما قلت ياعليم فانك تكون قد وصفته بالعلم وحده ، وإذا قلت ياقادر فانك تكون قد وصفته بالقدرة وحدها وهكذا . أما إذا قلت يا الله فانك تكون قد وصفته بكل الصفات ولما كان هذا اللفظ بهذه المثابة خص بالذكر فى كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » .

(ب) وأن الهمزة فيه ينطق بها من أقصى الحلق ، واللام من طرف اللسان مع فتح الفم ، والهاء من أقصى الحلق ، فأول أحرفه ينطق به من أقصى الحلق وآخرها ينطق به من أقصى الحلق وفى هذا إشارة إلى أن كل شىء منه وإليه .

(جـ) وأنه لو حذفت الهمزة من أوله صار اللفظ هكذا « لله » ومنه قوله تعالى : « لله ما فى السماوات وما فى الأرض .. » الآية[3] ، ولو حذفت الهمزة واللام الأولى صار اللفظ هكذا « له » ومنه قوله تعالى : « له ملك

---

(١) ٦٥ سورة مريم .

(٢) ص ٨٩ تفسير القرطبى .

(٣) ٢٨٤ سورة البقرة .

السماوات والأرض ... »[1] ، ولو حذفت الهمزة واللام الأولى والثانية صار اللفظ هكذا « هـ » ومنه قوله تعالى : « هو الله الذى لا إله إلا هو »[2] ، والواو فى « هو » زائدة بدليل عدم ذكرها فى حالتى التثنية والجمع وحلول غيرها محلها كقولك : هما ، هم ، هن .

وحذفت فى الكتابة الألف الأخيرة من (الله) للتخفيف ولأن لا يلتبس فى الكتابة باسم الفاعل وهو : اللاه من لها يلهو لهوا .

وأصله (إله) حذفت الهمزة وعوض عنها الألف واللام فلزمت ولذا قيل : يا الله بهمزة القطع ، وكان قبل حذف الهمزة اسم جنس يقع على كل معبود بحق أو بباطل ، ثم غلب على المعبود بحق كالنجم الذى هو اسم لكل كوكب ثم غلب على الثريا ، فهو قبل حذف الهمزة علم بالغلبة ، وبعد حذفها ودخول أداة التعريف صار علما مختصا به سبحانه .

وبعض العلماء يرى أنه مشتق من قولهم : أله إلهة وألوهة وألوهية بمعنى عبد ومنه قولهم : تأله . فاله مصدر بمعنى المفعول أى مألوه بمعنى معبود ومنه قوله تعالى : وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله »[3] .

وقيل مشتق من أله ـ بكسر اللام ـ بمعنى التحير لأن حقيقة ذاته وصفاته تتحير فى معرفتها العقول وتدهش الفطن .

وقيل مشتق من « ألهت إلى فلان » بمعنى سكنت إليه لأن الأرواح تسكن إلى معرفته وتستأنس وتبتهج ، والقلوب تطمئن بذكره وتبتلج .

---

(١) ٢ سورة الحديد .
(٢) ٢٢ سورة الحشر .
(٣) ٨٤ سورة الزخرف .

وذكر الله الاسم ولم يقل (بالله الرحمن الرحيم) لبيان أن التبرك والاستعانة تكون بذكر اسمه تعالى ، وللتفرقة بين التبرك والقسم ، وللدلالة على أن أي اسم من أسمائه تعالى كاف في النجدة وقبول الدعاء .

(الرحمن الرحيم): صفتان مشتقتان من الرحمة على سبيل المبالغة كغضبان من غضب ، وسميع من سمع . والرحمة في اللغة : رقة في القلب وانعطاف وحنو يستدعي التفضل والإحسان .

وهذا المعنى لا يليق أن يكون وصفاً لذاته تعالى لأنه راجع إلى انفعال النفس وتأثرها بأمر دعاها إلى أن ترق وتعطف على من انفعلت وتأثرت بسببه والله منزه عن ذلك لعدم مشابهته للحوادث (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[1] ، فالمراد بالرحمة أثرها وهو إنعامه وإحسانه إلى عباده ، وهذا من باب المجاز المرسل حيث ذكر السبب وأريد المسبب ، أو من باب الاستعارة التصريحية التبعية وإجراؤها أن نقول : شبه الإحسان بالرحمة بجامع ترتب الانتفاع في كل ثم استعيرت الرحمة للاحسان واشتق منها الرحمن الرحيم .

واختلف المفسرون في التفرقة بين هاتين الصفتين الجليلتين وذكروا وجوها كثيرة منها :

(أ) أن « الرحمن » هو المنعم في الدنيا على جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم برهم وفاجرهم ، وهذا اللفظ أبلغ من « الرحيم » لأنه أزيد حروفاً وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، فهو دال على عموم رحمته وشمولها وسعتها ، وكثيراً ما يقترن في القرآن لفظ « الرحمن » باستوائه تعالى على العرش الذي يحيط بالمخلوقات ويسعها ، فوسعت رحمته مخلوقاته كما وسعها عرشه ، وغلبت غضبه كما ورد في الأحاديث الصحيحة .

---

(١) ١١ سورة الشورى

وأما « الرحيم » فهو المنعم على المؤمنين وحدهم بهدايتهم إلى الإيمان وإثابتهم فى الآخرة ثواباً دائماً غير منقطع قال تعالى : « وكان بالمؤمنين رحيما »[1] .

(ب) أن « الرحمن » هو المنعم بجلائل النعم وأصولها ، أما « الرحيم » فهو المنعم بما عداها فهو وصف متمم لما قبله . وفى هذا دلالة على مزيد رحمته وشمول عنايته وأنه الملاذ والمقصود — وحده — فى كل النعم عظيمها وحقيرها ، كبيرها وصغيرها ، ظاهرها وباطنها « ومابكم من نعمة فمن الله »[2] .

(جـ) أن « الرحمن » صفة ذاتية هى مبدأ الرحمة والنعمة ، أما « الرحيم » فصفة فعل تدل على وصول الرحمة والنعمة إلى من أنعم الله عليه (أى المرحوم) .

فـ (الرحمن) هو الموصوف بالرحمة ، و (الرحيم) هو الراحم برحمته .

وقدم « الرحمن » على « الرحيم » لما سبق ولتقدم رحمة الله فى الدنيا ، ولأن « الرحمن » لفظ اختص به الله وصار علماً عليه بالغلبة فلا يوصف به غيره من خلقه[3] ولذا جرت عليه فى القرآن الصفات كما جرت على أسماء

---

(١) ٤٣ سورة الأحزاب .

(٢) ٥٣ سورة النحل .

(٣) وصف بنى حنيفة لمسيلمة الكذاب الأشر بأنه : « رحمان اليمامة » وقول شاعرهم فيه :

سموت بالمجد يا ابن الأكرمين ندى وأنت غيث الورى لازلت رحمانا
لون من تعنتهم فى الكفر وضرب من تماديهم فى الجهل والفساد وإمعانهم فى =

الذات مثل قوله تعالى : « الرحمن علم القرآن »[1]، « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن »[2] ، « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن »[3] .

أما « الرحيم » فاللفظ يطلق على الله وعلى غيره من خلقه قال تعالى : « إن الله بالناس لرؤوف رحيم »[4] « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم »[5] .

فناسب ذكره (الرحمن) عقب اسمه العلم (الله) من جهة الاختصاص .

وخص الله البسملة بذكر هذه الألفاظ الثلاثة (الله ـ الرحمن ـ الرحيم) لينبه المرء إلى أن الجدير والمستحق للاستعانة به في كل الأمور هو المعبود الحقيقي الذي يملك النعم كلها ويوليها ، المتصف بما هو أهله واللائق بكماله، وفي هذا دفع للمرء إلى التوجه بكليته إلى حضرة الربوبية والتمسك بالتعاليم الإلهية وتعليق قلبه بذكر ربه وحده سبحانه .

ومعنى الآية الكريمة : أبدأ عملي متبركا ومستعيناً بسم الله المعبود بحق والمتصف بجميع صفات الكمال والجلال والذي استفاضت رحمته ووسعت كل شيء ، وأربأ بنفسي وأبرأ من حولي وطولي ومن كل ما فعله ويفعله السفهاء الضالون الذين يبدءون أعمالهم بذكر أسماء غير اسم الله عز وجل .

= الضلال والعناد . وإذا كان وصف غير الله بأنه « الرحمن » ممتنعاً فوصفه بالصفتين « الرحمن الرحيم » أشد امتناعاً .

(١) ١ ، ٢ سورة الرحمن :
(٢) ١١٠ سورة الإسراء .
(٣) ٦٠ سورة الفرقان .
(٤) ١٤٣ سورة البقرة .
(٥) ١٢٨ سورة التوبة .

وردت أحاديث كثيرة فى فضل البسملة منها : مارواه الحاكم وابن أبى حاتم وابن مردويه بسندهم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عثمان بن عفان رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ عن ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ فقال : « هو اسم من أسماء الله وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين وبياضها من القرب[1] » .

وما أخرجه الشيخان بسندهما عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبى ﷺ : لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا فانه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره شيطان أبداً[2] .

وغير هذا من الأحاديث التى بينت لنا مزايا البسملة وفضائلها .

وقد أجمع العلماء على أن البسملة قرآن وجزء آية من سورة النمل فى قوله تعالى :

« إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم »[3]

واختلفوا فى البسملة المذكورة فى أول السور :

فالشافعية وأحمد بن حنبل فى رواية عنه وفقهاء مكة والكوفة وقراؤها

---

(١) انظر ج ٢ ص ٢٥٢ المستدرك للحاكم وصححه وأقره الذهبى ، وصححه البيهقى فى شعب الإيمان ، وانظر ج ١ ص ١٧ تفسير ابن كثير .

(٢) ج ٧ ص ٢٩ كتاب النكاح باب ما يقوله الرجل إذا أتى أهله : صحيح البخارى ، و ج ٣ ص ٦٠٨ كتاب النكاح باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع : صحيح مسلم بشرح النووى .

(٣) ٣٠ سورة النمل .

كابن كثير وعاصم والكسائي يقولون إنها آية من الفاتحة ومن كل سورة غير براءة ولذلك يجهر بها فى الصلاة عندهم ، ومن أدلتهم أن السلف كتبوها فى المصاحف بالإجماع مع الأمر بتجريد القرآن عما ليس منه ولذا لم يكتبوا — مثلا — (الإستعاذة) فى أول السور ولا فى أول سورة التوبة ولا (آمين) فى آخر سورة الفاتحة مع أنها مطلوبة فاثباتهم للبسملة فى المصحف — والحالة هذه — دليل قوى على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة ذكرت فى أولها .

وأن النبي ﷺ وآله وسلم قال: الحمد لله رب العالمين سبع آيات إحداهن بسم الله الرحمن الرحيم ، وهى السبع المثانى والقرآن العظيم وهى أم القرآن وهى فاتحة الكتاب[1] .

والحنفية ومن معهم من قراء المدينة والبصرة والشام يقولون : إنها ليست بآية من الفاتحة ولامن غيرها من السور وإنما هى آية فذة قائمة بذاتها أنزلت للفصل بين السور والتبرك بالإبتداء بها ولذلك لايجهر بها فى الصلاة عندهم .

وهذا قول مرجوح لأن الفاتحة ليس قبلها سور وتوجد فى أولها البسملة، وسورة التوبة قبلها سور ولم تتصدرها البسملة .

ثم إن تكرارها فى القرآن لاينفى عدها آية من السور المصدرة بها كما

---

(١) هذا الحديث أخرجه البيهقى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وأخرج هو والنسائى وابن خزيمة والطبرانى وابن مردويه بأسانيدهم عن أم سلمة رضى الله عنها وأبى هريرة وأنس بن مالك رضى الله عنهما أحاديث مرفوعة تفيد أن البسملة آية من الفاتحة وغيرها من السور المصدرة بها أنظر ج ٢ ص ٤٤ وما بعدها كتاب الصلاة باب الدليـــل على أن بسم الله الرحمن الرحيم آية تامة من الفاتحة : سنن البيهقى ، و ج ٢ ص ١٠٣ كتاب الأفتتاح - أى أفتتاح الصلاة — سنن النسائى .

أن فى القرآن بل فى السورة الواحدة آيات مكررة بنصها وهى مع ذلك معدودة مثـــل : « إن فى ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم »[1].

« فبأى آلاء ربكما تكذبان »[2] « ويل يومئذ للمكذبين »[3] ، ولم نقل إن الآية المكررة بنصها آية واحدة مكررة بل نقول إنها آيات .

والمالكية يقولون إنها ليست بآية من الفاتحة ولامن غيرها ، وأقوى أدلتهم ماورد فى الحديث القدسى : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ماسأل فاذا قال : الحمد لله رب العالمين : قال الله : حمدنى عبدى ... إلى آخر الحديث السابق تخريجه .

فالفاتحة كما جاء فى الحديث خالية من ذكر البسملة .

وقد رد العز بن عبد السلام شيخ الإسلام بأن ظاهر هذا الحديث غير مراد لأن الصلاة ليست مقسومة بالإجماع بل قراءتها ، والقراءة أيضاً ليست مقسومة بالإجماع بدليل السورة المضمومة إلى الفاتحة ، بل بعض القراءة فيكون التقدير : قسمت بعض قراءة الصلاة ، وبعض قراءة الصلاة لايستلزم الفاتحة فالمقسوم عندنا بعض الفاتحة ونحن نقول به ا هـ[4].

ويجوز أن يكون معنى الحديث : قسمت مايختص بالفاتحة من الآيات ،

---

(١) كررت فى سورة الشعراء ثمانى مرات

(٢) كررت فى سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة .

(٣) كررت فى سورة المرسلات عشر مرات .

(٤) أنظر زهر الربى للسيوطى على المجتبى للنسائى وهو المعروف بسنن النسائى ج ٢ ص ١٠٦ كتاب الأفتتاح أى أفتتاح الصلاة ، وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ج ١ ص ٣٠ .

ولما كانت البسملة موجودة فى الفاتحة وغيرها من السور عدا براءة لم تذكر فى التقسيم . وأيضاً فى البسملة ثناء على الله بما تكرر فى ثنايا الفاتحة بل فى الفاتحة ألفاظ البسملة فلم يكن هناك مايستدعى ذكرها وبخاصة أنها مشتركة فى كل السور باستثناء التوبة .

وخلو الفاتحة من البسملة وعدم عدها منها — كما جاء فى الحديث — لايستلزم خلو السور الأخرى وعدم عدها منها .

ثم إن القول بأنها آية من الفاتحة ومن كل سورة مثبت ، أما القولان الآخران فنافيان والإثبات يقدم على النفى لأن فى الإثبات زيادة علم .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله تعالى ا هـ[1] .

وكما أختلف العلماء والفقهاء فى عد البسملة آية من الفاتحة ومن كل سورة أختلفوا فى وجوب قراءتها فى الصلاة أو عدمه ، وفى الجهر بها أو الإسرار إذا قرئت ، ولكنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر ، ولتنقيح هذا المبحث والإستفاضة فيه موضع غير هذا ، فمن أراده فليرجع إلى كتب الفقه المطولة وإلى كتب التفسير التي عنيت بتفسير آيات الأحكام .

---

(١) ج ١ ص ٢٦ الكشاف للزمخشرى .

(الحمد لله رب العالمين)

لما افتتح الله سبحانه القرآن الكريم بالبسملة وفيها ثناء عاطر عليه ونوع من الحمد ناسب أن يردفها بالحمد الكلى الشامل لجميع أفراده البالغ أقصى درجات الكمال والرفعة فقال : الحمد لله رب العالمين .

وهذه الجملة (الحمد لله) افتتح الله بها أربع سور أخرى فى القرآن وهى سورة الأنعام والكهف وسبأ وفاطر ، والمتأمل فيها يجد أنها تتحدث عن نعم عظيمة جليلة لا يقادر قدرها ولا يقدر عليها إلا الله تعالى مما يدل على أنه الحقيق والجدير بالحمد والثناء .

والحمد هو : الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة أوغيرها ويكون الثناء على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية .

أما الشكر فهو : الثناء على المحسن بما قدم من معروف أى لا يكون إلا على المحسن بصفاته المتعدية أى التى له دخل فيها ، ويكون بالجنان « القلب » واللسان والأركان « الجوارح » قال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة   يدى ولسانى والضمير المحجبا

نبين الحمد والشكر عموم وخصوص وجهى : فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه لأن الحمد يكون على الصفات اللازمة والمتعدية نحو قولك: حمدت الرجل لفروسيته ، وحمدته لكرمه ، وهو أخص لأنه يكون باللسان فقط .

والشكر أعم من الحمد من حيث ما يقعان به لأن الشكر يكون باللسان

والجوارح والقلب ، وهو أخص لأنه يكون على الصفات المتعدية وحدها تقول : شكرته على كرمه وإحسانه ، ولا يصلح أن تقول : شكرته على فروسيته .

فالحمد أخص من الشكر مورداً وأعم منه متعلقاً ، والشكر أعم من الحمد مورداً وأخص منه متعلقاً .

أما المدح فهو اعم منهما معا لأنه الثناء على الجميل سواء كان الممدوح مختاراً في فعله أو غير مختار كمدح الرجل على جماله وشجاعته ، ويكون للحى والميت والجماد كمدح الطعام والمكان واللؤلؤ وغيرذلك ، ويكون قبل الإحسان وبعده ، وعلى الصفات المتعدية واللازمة ، ويكون باعتدال وبمالغة ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم في المادحين المبالغين : «احثوا في وجه المداحين التراب»[1].

وبالتأمل فيما تقدم تعلم السر في اختصاص الله نفسه بالحمد وإفراده بالذكر في القرآن الكريم دون المدح والشكر .

ولما كان الحمد شعبة من شعب الشكر وكان باللسان أكثر إشاعة وإظهاراً للنعمة وأظهر دلالة على مكانها وعظمتها من الاعتقاد وآداب الجوارح لخفاء الاعتقاد القلبي وما في عمل الجوارح من الاحتمال جعله الإسلام رأس الشكر وعمدته قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لم يحمده »[2]

---

(١) ج ٥ ص ٨٤٦ كتاب الزهد باب النهى عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح : صحيح مسلم بشرح النووى ، وج ٤ ص ٢٦ أبواب الزهد باب كراهية المدحة والمداحين سنن الترمذى ، وأخرجه أبو داود وابن ماجه في كتاب الأدب من سننهما ، وهو مروى عن المقداد ابن عمرو وشهرته المقداد بن الأسود .

(٢) أخرجه عبد الرازق في المصنف ج ١٠ ص ٤٢٤ كتاب الجامع باب شكر الطعام ، والحكيم الترمذى في نوادر الأصول ص ١٩٦ في الأصل الثانى والخمسين والمائة ، والبيهقى في الأدب ، والديلمى في مسند الفردوس ، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

وذكر الحمد ولم يذكر التسبيح لأن حمد الله يتضمن تسبيحه وزيادة إذ فى التسبيح دلالة على كونه تعالى مبرأ فى ذاته وصفاته عن النقائص ، وفى الحمد دلالة على ذلك وعلى كونه محسناً إلى الخلق منعما عليهم رحيمابهم فهو كامل فى ذاته وصفاته كمالا مطلقاً قبل أن يكمل غيره بالإحسان إليه والإنعام عليه والرحمة به ، ومن هنا فإن ذكر الحمد هو المناسب للمقام .

والحمد يقابله الذم ، والشكر يقابله الكفران .

ولا يتحقق الحمد إلا بخمسة أمور وهى : حامد ، محمود ، محمود به ، محمود عليه ما يدل على اتصاف المحمود بصفات .

فالحامد : المثنى بالحمد على ربه وموجده تعالى .

والمحمود هو : الرب جل وعلا .

والمحمود به قولنا : « الحمد لله رب العالمين » وهـذا القول ثناء عظيم على الله تعالى بل هو جماع الثناء ولذا افتتح الله به كتابه الحكيم .

والمحمود عليه : نعمه سبحانه التى أسبغها على خلقه ظاهرة وباطنة مدركة وغير مدركة .

وأما اتصاف المحمود بصفات تستدعى حمده فهى فى الله تعالى كثيرة لا تحصى وظاهرة واضحة وكلها صفات عظمة وكمال وفخامة وجلال .

والثناء أنواع أربعة : ثناء قديم على قديم كثناء الله على نفسه ، ثناء حادث على حادث كثناء الناس بعضهم على بعض ، ثناء قديم على حادث كثناء الله على رسله وخلقه ، ثناء حادث على قديم كثناء الخلق على ربهم .

قال شقيق بن إبراهيم الزاهد : إن لحمد لله والثناء عليه شرائط هى : أنه

إذا أعطاك شيئا وجب عليك معرفة من أعطاك ، وأن ترضى بما أعطاك ، وأن لا تعصيه مادامت قوته فى جسدك اهـ[1] .

وقد افتتح الله سورة الفاتحة التى هي أول القرآن فى ترتيب المصحف بالبسملة والحمدلة ليعلم عباده ويرشدهم إلى أن يستهلوا مكتوباتهم وخطبهم بالثناء عليه وحمده وتمجيده ليتم إرتباطهم بربهم ويأتى عملهم كاملا إذ أن كل عمل لا يبدأ فيه المرء بالثناء على الله يكون ناقص البركة .

ولفظ (الحمد) مرفوع على أنه مبتدأ ، وخبره هو متعلق الجار والمجرور (لله) أى ثابت أو واجب لله ، واللام الجارة للاختصاص ويصح أن تكون للاستحقاق ولا تنافى بين المعنيين فالله يستحق الحمد ويختص به ، والأصل فى لفظ (الحمد) النصب[2] لأنه من المصادر المنصوبة بأفعال مقدرة فى معنى الإخبار لا تكاد تذكر معها ، وهي مصادر معروفة فى اللغة كقولهم: شكراً ، وكفراً ، وعجباً ، وسبحان ، ومعاذ الله ... إلخ .

وعدل عن النصب إلى الرفع للدلالة على عموم الحمد له وثبات الثناء عليه سبحانه دون تجدده وحدوثه إذ أن الجملة الاسمية تفيد دوام ما تضمنته من معنى وثبوته واستقراره .

وفى هذه الجملة قصر حقيقى طريقه تعريف الطرفين وهو قصر صفة على موصوف أى قصر الحمد عليه تعالى لا يشاركه فيه غيره .

وهي جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى لحصول الحمد بالتكلم بها مع الإذعان والإنقياد لمدلولها أى فيها إخبار عن ثبوت الحمد له تعالى واتصافه بصفات

---

(١) أنظر ص ١١٧ تفسير القرطبي .

(٢) قرىء به وهى قراءة شاذة .

الـكمال والجلال وهى فى نفس الوقت أمر لنا بأن نحمده إذ لا يستحق الحمد إلا من كان كذلك .

ولم تأت الجملة إنشائية محضة لأن الأمر يقتضى التكليف وربما أفضى إلى نفور المكلفين وكراهيتهم ، أما هذه الصيغة ففيها تأليف للعباد وترفق بهم حتى يأنسوا ويألفوا ويصغوا بآذان واعية وقلوب زاكية لما سيسوقه الله إليهم من تكاليف وتشريعات .

وأل فى (الحمد) للاستغراق أى استغراق جميع أفراد الحمد وبيان أنها كلها مختصة به سبحانه فلا إعتداد بحمد غيره لأن الله هو المنعم المتفضل على خلقه وكل النعم فى الحقيقة منه سواء كانت بواسطة أو بدون واسطة قال تعالى : « وما بكم من نعمة فمن الله »[1] وقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : « اللهم لك الحمد كله »[2] .

ولفظ الجلالة (الله) علم على الذات الأقدس واجب الوجود الواحد المعبود بحق ومر الـكلام عنه فى البسملة .

(رب) الرب بالألف واللام اسم من أسماء الله تعالى خاص به ، وهو فى الأصل مصدر بمعنى التربية وهى : تعهد الشيء بالعناية والرعاية وتبليغه بحسب إستعداده إلى الـكمال شيئاً فشيئاً أى بالتدريج .

قال الواسطى : هو الخالق ابتداء ، والمربى غذاء ، والغافر انتهاء ، وهو اسم الله الأعظم اهـ[3] .

---

(١) ٥٣ سورة النحل .
(٢) أنظر جـ ١ ص ٤٩ — ٥٠ الجامع الصغير للسيوطى .
(٣) جـ١ ص ٦ تفسير النسفى .

وموقعه الإعرابي هنا صفة للفظ الجلالة على سبيل المبالغة على إعتبار بقائه على المصدرية لأن الوصف بالمصدر يفيد المبالغة كقولك : زيد عدل » : فزيد لشدة عدالته وبلوغه فيها درجة عظمى صار كأنه نفس العدل ، ومنه قوله تعالى : « إنما المشركون نجس[1] » .

فالله لعظمة تربيته وسموها وتعهده العالمين بالعناية والرعاية وتبليغهم إلى الكمال صار كأنه نفس التربية .

وقيل إن لفظ (رب) نعت من ربه يربه ربا فهو رب ، فهو مصدر بمعنى اسم الفاعل أى راب ، ثم سمى به المالك المتصرف لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه فهو رب كل شيء والخلائق كلها مربوبة له تعالى : قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء[2] : ومنه قول صفوان بن أمية بن خلف الجمحى لأبى سفيان ابن حرب فى يوم حنين : « لأن يربنى رجل من قريش أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن » .

ويطلق لفظ (رب) لغة كذلك على السيد والمصلح والمدبر ... إلخ

ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيداً بالإضافة نحو قوله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام : « إنه ربى أحسن مثواى »[3] « أرجع إلى ربك »[4] ، ونحو قولك : رب البيت ، رب السيف والقلم .

---

(١) ٢٨ سورة التوبة .
(٢) ١٦٤ سورة الأنعام .
(٣) ٢٣ سورة يوسف عليه السلام .
(٤) ٥٠ سورة يوسف عليه السلام .

(العالمين) جمع العالم ، والعالم اسم جمع لا واحد له من لفظه كرهط وقوم وجيش وهو على الأرجح كل موجود سوى الله تعالى سواء كان مخلوقاً قد في السماء أو في الأرض في الدنيا أو في الآخرة لقوله تعالى قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين[1].

وهو مشتق من العلامة والعلم ، فهو علم دال على وجود خالقه واتصافه بالوحدانية لأن كل الكائنات لحدوثها وإفتقارها إلى مؤثر واجب لذاته تدل على وجوده ووحدانيته .

وجمع لفظ (العالم) جمع قلة ولم يجمع جمع كثرة بأن يقال (العوالم) لبيان شمول ربوبيته تعالى لكل الأجناس على إختلافها وتنوعها وللايذان بأن العوالم مهما كثرت وتعددت وتنوعت فهي قليلة حقيرة في جانب عظمته تعالى وكبريائه، وألحق بجمع المذكر السالم لجمع بالياء والنون مع أنه خاص بالعقلاء لأن الكائنات لما خشعت لربها وخضعت لجلاله وسلطانه وعرفته وسبحت بحمده صارت كالعقلاء « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم »[2]

وهذا مثل قوله تعالى : إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين[3] وقوله تعالى : ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين»[4]

---

(١) ٢٣ ، ٢٤ سورة الشعراء .
(٢) ٤٤ سورة الإسراء .
(٣)٤سورة يوسف عليه السلام .
(٤) ١١ سورة فصلت .

أو أنه من باب التغليب تغليب العقلاء منهم على غيرهم والتغليب جائز واقع مشهور في اللغة .

وقيل إن لفظ (العالمين) اسم موضوع لذوى العقل والعلم من الملائكة والإنس والجن ، وعلى هذا فالجمع خاص بالعقلاء ولا تغليب فيه ويتناول غيرهم على سبيل التبعية .

وقيل أن المراد بالعالمين هنا الإنس وحدهم فان كل فرد من الناس عالم مستقل لإحتوائه على نظائر ما في العالم الكبير من الجواهر والأعراض الموصلة إلى العلم بالله سبحانه كما يوصل ما في العالم الكبير الفسيح إلى العلم به سبحانه واتصافه بجميع صفاته الحسنى : فرأس الإنسان لعلو قدره واشتماله على الحواس وهيمنته على الجسم بمنزلة العالم العلوى الذى يناط به أمر السفليات وشأنها حسبما يفيد قوله تعالى : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » [1] ، والسمع والبصر من حواس الإنسان كالشمس والقمر فى إدراك المدركات بها ، والعرق والبلغم وسائر رطوبات البدن من جنس الماء والروح والنفس من جنس الهواء ، والمرة الصفراء من جنس النار ، والدم فى الحرارة والرطوبة كالهواء ، والعروق فى جسمه كالأنهار فى الأرض ، والكبد بمنزلة العيون التى تستقى منها الأنهار لأن العروق تستمد من الكبد ، والمثانة بمنزلة البحر لأن ما فى أوعية البدن من سوائل يتجه إليها ويتجمع فيها وكذلك البحر له روافد تغذية وتصب فيه ، والعظام تمسك لحمه وشحمه وتحفظ هيكله وبنيانه كالجبال التى هى أوتاد الأرض ، وأعضاؤه المتنوعة كالأشجار المبثوثة فى الأرض ، ولكل عضو من أعضائه فعل أو أثر كما أن لكل شجر ورقاً أو ثمراً ، والشعر النابت على الجسم بمنزلة النباتات والحشائش على وجه الأرض ، وفى جسم الإنسان ما فى الأرض من حديد ومنجنيز وفوسفات

---

(١) ٥ سورة السجدة .

وكبريت وغيرها من سائر المعادن الأرضية ، وبعد موته يبلى جسمه ويصير تراباً « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى[1] .

ولذا حث الله على النظر فى الآفاق وفى الأنفس مسويا بينهما فقال : « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون »[2] وقال : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »[3] ، وقال الشاعر :

أتظن أنك جسم صغير وفيك أنطوى العالم الأكبر

ووجدت تخصصات علمية فى الإنسان وتنوعت وتكاثرت كما وجدت تخصصات علميه متنوعة متكاثرة فى الكون الفسيح وظواهره . وفى هذه الآية دليل واضح على أن الممكنات مفتقرة إلى المحدث حال حدوثها ، وهى كذلك مفتقرة إلى المبقى والممسك حال بقائها قال تعالى : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده »[4] وقال : ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم »[5] .

فهذه الآية الجليلة التى تعد من جوامع الكلم بينت أن الله تعالى أثنى فى الأزل على نفسه بنفسه لعلمه أن عباده عاجزون عن حمده والثناء عليه ثناء يليق بعظيم جلاله ويتناسب مع أكمل كماله ، وأمر عباده أمراً ضمنياً أن

---

(١) ٥٥ سورة طه .
(٢) ٢٠ ، ٢١ سورة الذاريات .
(٣) ٥٣ سورة فصلت .
(٤) ٤١ سورة فاطر .
(٥) ٢٥٥ سورة البقرة .

يثنوا عليه ما استطاعوا ليعود النفع عليهم ولذا قال صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه : « سبحانك لانحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[1] .

وقد نقل أن داود عليه السلام قال : يارب كيف أشكرك والشكر من آلائك ، فقال الله له : ياداود لما علمت عجزك عن شكرى فقد شكرتنى[2].

هذا ، وقد ورد فى السنة أحاديث تفيد أن الله يحب ثناء عباده عليه وحمدهم له وأنه يثيبهم على هذا الثواب الجزيل : روى الإمام أحمد والنسائى وغيرهما بسندهم عن الأسود بن سريع قال : قلت يارسول الله ألا أنشدك محامد حمدت بها ربى تبارك وتعالى ، فقال : أما إن ربك يحب الحمد[3].

«وروى ابن ماجه بسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ[4] » .

وأخرج الحكيم الترمذى فى كتابه نوادر الأصول عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : لو أن الدنيا بحذافيرها فى يد رجل من أمتى ثم قال الحمد لله لكان الحمد لله أفضل من ذلك[5] .

---

(١) ج ٢ ص ١٢٣ كتاب الصلاة باب ما يقال فى الركوع والسجود : صحيح مسلم بشرح النووى ، و ج ١ ص ٢٣٢ كتاب الصلاة باب الدعاء فى الركوع والسجود : سنن أبى داود . وأخرجه النسائى وابن ماجه وغيرهما عن عائشة وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما .

(٢) ج ١ ص ٢٢٢ تفسير الرازى ، و ج ١ ص ٧٦ تفسير الألوسى .

(٣) ج ٣ ص ٤٣٥ المسند للامام أحمد .

(٤) ج ٢ ص ١٢٥٠ كتاب الأدب باب فضل الحامدين : سنن ابن ماجه .

(٥) أنظر ص ٢١٥ نوادر الأصول الأصل الحاذى والسبعون والمائة .

وروى ابن ماجه بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حدثهم أن عبداً من عباد الله قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعضلت بالملكين — أى إشتدت واستغلقت ـ فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى الله فقالا : ياربنا إن عبداً قد قال مقالة لاندرى كيف نكتبها ، قال الله ـ وهو أعلم بما قال عبده ـ : ماذا قال عبدى ؟ قالا : يارب إنه قال: لك الحمد يارب كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : أكتباها كما قال عبـدى حتى يلقانى فأجزيه بها[1] .

وروى مسلم بسنده عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الإيمـان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض .. » الحديث[2] .

إلى غير هذا من الأحاديث التى يطول حصرها ويكثر ذكرها .

وبلغ من عظمة هذه الجملة (الحمد لله) وعلو قدرها وفخامة شأنها أن اختلف العلماء فى المفاضلة بينها وبين كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) :

فقالت طائفة : إن قولى العبد « الحمد لله رب العالمين » أفضل من قوله : « لا إله إلا الله » لاشتمال الحمـد لله على التوحيد والثناء عليه سبحانه ، أما (لا إله إلا الله) فتوحيد فقط .

وقالت طائفة : إن (لا إله إلا الله) أفضل لأنها فاصلة بين الإيمان والكفر

---

(١) ج ٢ ص ١٢٤٩ كتاب الأدب باب فضل الحامدين : سنن ابن ماجه.

(٢) ج ١ ص ٥٠١ كتاب الطهارة باب فضل الوضوء : صحيح مسلم بشرح النووى ، وانظر ج ١ ص ١٠٢ كتاب الطهارة وسننها باب الوضوء شطر الإيمان : سنن ابن ماجه .

ولأن الناس يقاتلون عليها حتى يقولوها ولقوله ﷺ : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .

والذى أراه أن «الحمد لله» أفضل فى باب الدعاء ، وأن « لا إله إلا الله » أفضل فى باب الذكر فكل منهما فضلى فى بابها بدليل قول الرسول ﷺ فيما رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه والنسائى بسندهم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله »[1] .

---

(١) جـ ٢ ص ١٢٤٩ كتاب الأدب باب فضل الحامدين : سنن ابن ماجه ، وجـ ٥ ص ١٣٠ أبواب الدعوات باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة : سنن الترمذى .

(الرحمن الرحيم)

وهذان اللفظان الساميان سبق الكلام عليهما فى البسملة ، وأعيدا هنا للاحتراس أى لبيان أن تربية الله للعالمين وتعهدهم بالعناية والرعاية ليست لحاجته إليهم فيجلبون له نفعاً أو يدفعون عنه ضراً ، بل هذا تفضل من الله وصادر عن محض اختياره وراجع إلى عموم رحمته وشمول إحسانه وبره « وربك الغنى ذو الرحمة »[1] .

ولأن ذكرهما فى البسملة كان تعليلا للابتداء والاستعانة باسمه عز وجل ، أما ذكرهما ثانية هنا فهو تعليل لاستحقاقه الحمد وتنبيهنا على أنه أمرنا بعبادته والثناء عليه رحمة منه بنا حيث إن المصلحة والمنفعة تعود علينا .

ولأن لفظ (رب) لما كان المرء يستشعر فيه القوة والقهر والجبروت والبطش — لأن المربى قد يكون خشنا فى تربيته غليظاً فى طباعه فظاً فى معاملته جافاً فى سلوكه عنده جفوة وتصلب مع من يربيه — جاءت الآية الثانية تذكره بأن ربوبيته تعالى ربوبية إكرام وإحسان ورحمة وحنان ليقبل العابد على عبادة ربه منشرحا صدره مطمئناً قلبه مبتهجة نفسه .

وفى هذا قرن للترهيب من الله بالترغيب إليه وهو مسلك سلكه الله فى القرآن فى مواطن كثيرة مثل: « اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم »[2]

---

(١) ١٣٣ سورة الأنعام .

(٢) ٩٨ سورة المائدة .

«إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم»[1]، «نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم، وأن عذابى هو العذاب الأليم»[2]، «غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول»[3].

وفيما تقدم رد على من أدعى من العلماء أن البسملة ليست من الفاتحة محتجاً بأنها لو كانت منها لما أعاد الله ذكر «الرحمن الرحيم» لأن إعادتهما خالية من الإفادة.

---

(١) ١٦٥ سورة الأنعام. (٢) ٤٩، ٥٠ سورة الحجر.
(٣) ٣ سورة غافر.

(مالك يوم الدين)

ولما أثبت الله استحقاقه للحمد والثناء وبين لعباده موجبات حمده والثناء عليه ذكر ملكيته ليوم الدين حيث يثيب الحامدين ويعاقب المعرضين .

فذكر ليوم الدين بعد ملكيته للكائنات والعوالم كلها من باب ذكر الخاص بعد العام اهتماما بشأنه ولإزالة ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان من أنه رب مالك للعالمين فى الدنيا دون الآخرة فجاءت (مالك يوم الدين) وأزالت هذا الوهم وبينت ربوبيته للعالمين واختصاصه بالخلق والأمر فى الدنيا والآخرة .

(مالك) فى هذه الكلمة قراءتان سبعيتان متواترتان :

الأولى : (مالك) بالألف اسم فاعل من ملك يملك ، وهى لعاصم والكسائى ، والمالك هو المتصرف فى الأعيان المملوكة كيف شاء ، وهو وصف من الملك بكسر الميم بمعنى : حيازة الشيء مع القدرة على تصرف الحائز فيه ، ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى : « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً »(١)، وقوله : « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون »(٢) .

والمعنى على هذه القراءة : أن الله تعالى يتصرف فى شئون يوم الدين من حساب وثواب وعقاب وعفو تصرف المالك فيما يملكه لا ينازعه فى ملكيته وتصرفه أحد .

---

(١) ١٩ سورة الإنفطار .

(٢) ٤٠ سورة مريم .

الثانية : (ملك) بفتح الميم وكسر اللام صفة مشبهة ، وهى لباقى القراء السبعة ، والملك هو المتصرف بالأمر والنهى فى أمور المملوكين وذواتهم ، وهو وصف من الملك بضم الميم بمعنى : السلطان العظيم والغلبة الكاملة والقدرة على التصرف الشامل بالأمر والنهى ، ويعضد هذه القراءة قوله تعالى : « قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور »[1] ، وقوله : « هو الله الذى لا إله إلا هو الملك »[2] .

والمعنى على هذه القراءة : أن الله سبحانه هو المدبر لأمور يوم الدين وله التصرف المطلق والسيطرة الكاملة والسلطة الشاملة فيه فلا يقع شىء هنالك إلا بتدبيره وأمره وإذنه .

وتوجد فى هذه الكلمة (مالك) قراءات أخرى كثيرة تولى جمعها وذكرها العلامة أبو حيان والألوسى فى تفسيرهما[3] وكلها قراءات شاذة لا داعى لأن نسود القرطاس بذكرها هنا وتوجيهها .

واختلف العلماء أى القراءتين السابقتين أبلغ وأعم وأكمل لله تعالى :

فقال البعض : إن (مالك) أبلغ وأفضل لأنه أكثر ثواباً لكثرة حروفه وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى .

وقال البعض : إن (ملك) أبلغ لأن كل ملك مالك وليس كل مالك ملكا ، ولأن أمر الملك ينفذ على المالك فى ملكه ولا يتصرف إلا عن تدبير الملك بخلاف العكس .

---

(١) ٧٣ سورة الأنعام .

(٢) ٢٣ سورة الحشر .

(٣) انظر جـ ١ ص ٢٠ البحر المحيط لأبى حيان ، و جـ ١ ص ٨٢ ـ ٨٣ روح المعانى للألوسى .

وقال أبو حاتم الرازى وأبو بكر بن العربى : (مالك) أبلغ فى مدح الخالق من (ملك) ، و(ملك) أبلغ فى مدح المخلوقين من (مالك) ، والفرق بين اتصاف الله و بين اتصاف أحد من الخلق بأنه مالك أن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك . أما الله تعالى فهو إذا كان مالكا كان ملكا .

والحق أن فى كل وصف خاصية لا توجد فى الآخر :

فالمالك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات فيما هو مالك له بالبيع والهبة والعتق ونحوها ، والملك يقدر على ما لا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك وحياطته ورعاية مصالح الرعية .

فالمالك أقوى من الملك فى بعض الأمور ، والملك أقوى من المالك فى بعض الأمور ، والله متصف بالوصفين معا ، والفرق بينهما بالنسبة إليه سبحانه أن الملك صفة لذاته والمالك صفة لفعله[1] .

والفرق بين صفة الذات وصفة الفعل بالنسبة إلى الله تعالى: أن صفة الذات لا تنفك عن الذات فى حال من الأحوال ولا يتصور العقل خلو الذات منها ولا يجمع بينها و بين ضدها .

أما صفة الفعل فيمكن أن يتصور العقل انفكاكها عن الذات فى حال من الأحوال ، كذلك يمكن الجمع بينها و بين ضدها مثل : المحى ، المميت - الباسط ، القابض - المعطى ، المانع - النافع ، الضار - .

كذلك صفة الذات خاصة بذاته تعالى لا يشاركه فيها غيره من الخلق .

---

(١) انظر جـ ١ ص ٢٢ فتح القدير للشوكانى .

أما صفة الفعل فقد يشاركه فيها غيره مع التفاوت ، واتصاف غيره بها لا يؤدى إلى لحوق نقص بذاته تعالى .

وما دام الله متصفا بالوصفين معا فلا يليق المفاضلة بينهما إذ المفاضلة ربما تشعر بنقص المفضول .

و (مالك) صفة رابعة للفظ الجلالة ، والذى سوغ وقوعه صفة للمعرفة مع أنه مضاف وإضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقية أن اسم الفاعل لا يراد به هنا الحال أو الاستقبال وإنما يراد به الدوام أى له الملك فى هذا اليوم على وجه الدوام والاستمرار الثبوتى .

ولما كان يوم الدين متحقق الوقوع باقيا أبد الآبدين أجرى مجرى المتحقق الواقع المستمر فالإضافة لا نظر فيها إلى الزمان ولا التفات إليه والله متعال منزه عن الزمان ، وهذا مثل قوله تعالى : « غافر الذنب وقابل التوب »[1] ، فكانت الإضافة حقيقية أكسبته التعريف وسوغت أن يقع صفة للمعرفة .

(يوم الدين) اليوم فى العرف هو : الزمان الذى بين طلوع الشمس وغروبها ، أما فى الشرع فهو : الزمان الذى بين طلوع الفجر الثانى وغروب الشمس ، والمراد به هنا مطلق الزمن وهو يوم القيامة .

وهذا الظرف (يوم) مجرور باضافة (مالك) إليه إجراء له مجرى المفعول به على سبيل الاتساع مع بقاء المعنى على حاله كقولهم : « ياسارق الليلة أهل الدار » ، فالليلة ظرف للمسروق وليست هي المسروقة ، كذلك هنا أى مالك لأمور الخلائق كلها بلا منازع فى يوم الدين .

---

(١) ٣ سورة غافر .

وتفيد هذه الإضافة المبالغة لأنه إذا كان مالكا للزمان فهو مالك لما يكون فيه من باب أولى اذ الظرف محيط بالمظروف .

و (الدين) مجرور باضافة (يوم) إليه ، وهذه الإضافة لأدنى ملابسة كاضافة كل الظروف الزمانية إلى ما وقع فيها من الحوادث مثل : « يوم الأحزاب » « عام الفتح » ، أى اليوم الذى تجمع فيه الأحزاب ، والعام الذى حصل فيه فتح مكة ، واليوم الذى يحيي الله فيه الخلائق ويجازيهم على أعمالهم .

ومعنى (الدين) هنا : الجزاء أي يوم الحساب والجزاء على الأعمال وهو يوم القيامة فالله يدينهم بأعمالهم في هذا اليوم إن خيراً فخير وإن شراً فشر إلا من عفا عنه ومنه قوله تعالى : اليوم تجزى كل نفس بما كسبت »[1] وقوله : يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق »[2] ، أ إذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون »[3] أى مجزيون محاسبون ، ومنه « الديان » فى صفة الله تعالى أى المجازي ، ومنه فى السنة : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت[4] أى حاسب نفسه وقولهم « كما تدين تدان » أى كما تفعل تجازى ، وقول الشاعر :

---

(١) ١٧ سورة غافر .

(٢) ٢٥ سورة النور .

(٣) ٥٣ سورة الصافات .

(٤) ج ٤ ص ٥٤ أبواب صفة القيامة : سنن الترمذى ، وج ٢ ص ١٤٢٣ كتاب الزهد باب ذكر الموت والاستعداد له : سنن ابن ماجه ، وج٤ص١٢٤ المسند للامام أحمد ، وهو مروى عن أبى يعلى شداد بن أوس .

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا[1]

ويطلق(الدين) ويراد به : الشريعة ، والطاعة ، وغير هذا من الإطلاقات اللغوية . وخص الله يوم الدين بالملكية مع أنه مالك له ولغيره من الكائنات العلوية والسفلية فى الدنيا والآخرة لتعظيم هذا اليوم وتهويله والترهيب منه قال تعالى : « ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ، ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين »[2] ، ولأن بعض خلقه كان ينازعه فى الملكية فى الدنيا كفرعون وقارون ونمروذ مع أن العوالم كلها ملك لله وحده فى الحقيقة والواقع أما يوم القيامة فالملكية فيه لله محضة وهو منفرد بنفوذ الأوامر لا ينازعه فى شىء منازع ولو ظاهرا ولا يدعى أحد هنالك شيئا ولا يتكلم إلا باذنه وخضع الكل لجلاله وخشع لسلطانه وكماله « وكلهم آتيه يوم القيامة فردا[3] » ، « الملك يومئذ الحق للرحمن »[4] « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار »[5] .

وآثر ذكر لفظ (يوم الدين) من بين سائر ما يقع فيه من خروج الناس من قبورهم وحشرهم ووقوفهم بين يدى ربهم وحسابهم ولم يقل (يوم القيامة) : مراعاة لفواصل الآيات ، ولأن كلمة (يوم الدين) أدخل فى

---

(١) أى جزيناهم بمثل ما ابتدءونا به ، والبيت من قصيدة فى حرب البسوس لشاعر يسمى الفند الزمانى وتوجد القصيدة فى كتاب الحماسة لأبى تمام الطائى أنظر ج ١ ص ٩٩ حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى .

(٢) ٤ ، ٦ سورة المطففين .

(٣) ٩٥ سورة مريم .

(٤) ٢٦ سورة الفرقان .

(٥) ١٦ سورة غافر .

ترغيب المطيعين وترهيب العاصين ، ولأن (الدين) لما كان معناه الجزاء كان عاما شاملا لجميع أحوال (يوم القيامة) من ابتداء الخروج من القبور إلى الحياة السرمدية الأبدية فكل ما يقع فى يوم القيامة يعد مبادىء للجزاء وتوطئة له ومقدمات موصلة إليه ، ولأن (يوم القيامة) لا يدل صراحة على الجزاء مثل دلالة (يوم الدين) عليه .

وهذا اليوم -- يوم الدين -- حتمى الوقوع وآت لا ريب فيه يقضى بذلك العقل والنقل ، فانا نرى فى هذه الحياة ملل البشر مختلفة ومتفاوتة وكل أصحاب ملة يستمسكون بها ويدعون لها ويدعون أنهم على الحق المبين وأن غيرهم فى الباطل المسكين ، بل نرى أهل الملة الواحدة فرقاً متعددة وجماعات متباينة يختلف موقفها من المسائل الدينية ، فلابد من مجىء يوم يجمع الله فيه الخلائق ويقص الحق وهو خير الفاصلين .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : « قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ، قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون ، قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم »[1] ، ويقول : قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين »[2] ، ويقول : وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين »[3] .

ونرى فى الحياة ما يثير العجب ويبعث على الدهشة : نرى ظلمة يموتون

---

(١) ٢٤ ، ٢٦ سورة سبأ .
(٢) ٢٩ سورة الملك .
(٣) ٣٨ ، ٣٩ سورة النحل .

وهم ظالمون لغيرهم ولم يقتص منهم ، ومظلومين يموتون وهم مظلومون من غيرهم ولم يقتص لهم ، ونرى أقوياء جبارين يعيثون فى الأرض فساداً ثم يموتون ولم يأخذوا جزاءهم ، ونرى الكفرة فى الجملة يعيشون فى رغد من العيش وبحبوحة وغبطة والدنيا جنتهم ، ونرى المسلمين فى الجملة يعيشون فى شظف من العيش وضيق وتقتير فى الرزق والدنيا سجنهم ، فلابد من مجىء يوم يأخذ كل واحد جزاءه ، ولو لم يأت هذا اليوم ويتحقق وقوعه ويأخذ كل جزاء عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر لما كان هناك عدل إلهى وتعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ، « إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى »[1] « ولله ما فى السماوات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى »[2] « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »[3] .

وفى العلم بحتمية مجىء هذا اليوم وتحقق وقوعه والمجازاة فيه ردع للظلمة فى الحياة ، وزجر للطغاة لئلا يتمادوا فى عتوهم وفسادهم ويسدروا فى غيهم وضلالهم ، وفيه راحة نفس للمظلومين والمستضعفين وطمأنينة لقلوبهم وانثلاج لصدورهم ، وبذا تستقيم الحياة الدنيوية وتستقر شئونها .

هذا ، ولايجوز أن يتسمى أحد من الخلق باسم : (الملك ، أو مالك الملك ، أو ملك الملوك ، أو مالك يوم الدين) ونحوها لأن هذه الألفاظ تطلق فى الحقيقة على الله سبحانه وتعالى « هو الله الذى لا إله إلا هو الملك »[4] « قل اللهم مالك الملك »[5]

---

(١) ١٥ سورة طه .
(٢) ٣١ سورة النجم .
(٣) ٧ ، ٨ سورة الزلزلة .
(٤) ٢٣ سورة الحشر . (٥) ٢٦ سورة آل عمران .

وورد في السنة مايفيد تحريم تسمية أحد من الخلق بهذه الألفاظ فقد أخرج الشيخان بسندهما عن أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعا : أخنع – أي أوضع وأبغض وأقبح – اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك ولامالك إلا الله[1] .

وأخرجا بسندهما عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه ثم يقول : « أنا الملك أين ملوك الأرض أين الجبارون أين المتكبرون [2] »

أما وصف غيره في الدنيا بأنه مالك أو ملك فعلى سبيل المجاز لا الحقيقة ومنه قوله تعالى : وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا »[3]، وقوله : وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا »[4] ، وغيرهما من الآيات .

---

(١) ج ٨ ص ٥٦ كتاب الأدب باب أبغض الأسماء إلى الله صحيح البخاري ، و ج ٤ ص ٨٥٠ كتاب الإداب باب تحريم التسمى بملك الأملاك أو بملك الملوك : صحيح مسلم بشرح النووي وج٤ ص٢١٣ أبواب الاستئذان والآداب باب مايكره من الأسماء : سنن الترمذي ، وأخرجه أبو داود في كتاب الأدب من سننه وأحمد في مسنده .

(٢) ج ٦ ص ١٥٨ كتاب التفسير تفسير سورة الزمر صحيح البخاري وأخرجه البخاري في كتاب التوحيد من صحيحه ، و ج ٥ ص ٦٥٦ كتاب صفة القيامة والجنة والنار صحيح مسلم بشرح النووي ، وأخرجه أبوداود وابن ماجه والدارمي في سننهم وأحمد في مسنده ، وهو مروى عن أبي هريرة وابن عمر وابن مسعود رضى الله عنهم .

(٣) ٢٤٧ سورة البقرة .

(٤) ٢٠ سورة المائدة .

وهذه الأوصاف الأربعة التى اتصف بها الله تعالى وهى كونه موجدا للعالمين ربا لهم منعما عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة العاجلة والآجلة مالكا لأمورهم فى يوم الجزاء : دالة على أن الله وحده هو الحقيق بالحمد ولا يستحقه غيره فان ترتب الحكم على الوصف يشعر بعلية الوصف للحكم ، ويشعر بطريق المفهوم أن من لم يتصف بتلك الصفات الجليلة والنعوت الجيلة لا يكون أهلا لحمده والثناء عليه فضلا عن عبادته .

وقد يقال : فى إجراء هذه الأوصاف بعد ذكر اسم الذات الجامع لصفات الكمال إشارة إلى أن الذى يحمده الناس ويعظمونه إنما يكون حمده وتعظيمه لأحد أمور أربعة : إما لكونه كاملا فى ذاته وصفاته وإن لم يكن منه إحسان إليهم ، وإما لكونه محسنا إليهم ومتفضلا عليهم ، وإما لأنهم يرجون لطفه وإحسانه فى الاستقبال ، وإما لأنهم يخافون من كمال قدرته .

فهذه هى الجهات الموجبة للحمد والتعظيم فكأنه سبحانه يقول : ياعبادى إن كنتم تحمدون وتعظمون للكمال الذاتى والصفاتى فاحمدونى فانى أنا الله وإن كان للاحسان والتربية والإنعام فانى أنا رب العالمين ، وإن كان للرجاء والطمع فى المستقبل فانى أنا الرحمن الرحيم ، وإن كان للخوف فانى أنا مالك يوم الدين[1].

وفى ذكر هذه الأوصاف إشعار بأن الحمد لله ليس مجرد الحمد والثناء عليه بل ينبغى أن يكون مقرونا بعلم العبد بصفاته الكمالية ونعوته الجلالية وهذه الأوصاف الأربعة أمهاتها وأصولها .

وفى بدء الأوصاف بالوصف الأول (رب العالمين) إشارة إلى البدء

---

(١) أنظر ج ١ ص.٢٣ مفاتيح الغيب للرازى و جـ١ ص ٨٥-٨٦روح المعانى للالوسى .

والخلق ، وفى الختم بالوصف الرابع (مالك يوم الدين) إشارة إلى البعث والإعادة كما بدأكم تعودون » [1] « كما بدأنا أول خلق نعيده وعداعلينا »[2] « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » [3]

---

(١) ٢٩ سورة الأعراف .
(٢) ١٠٤ سورة الأنبياء .
(٣) ٢٧ سورة الروم .

(إياك نعبد وإياك نستعين)

لما اشتملت الآيات السابقة على الثناء على الله تعالى ووصفته بصفات عظيمة ونعوت كريمة تميز بها عن سائر المخلوقات وتعلق العلم بمعلوم معين عظيم الشأن جليل القدر جدير بالثناء وغاية الخضوع جاءت هـذه الآية وفيها خطاب له باختصاصه بالعبادة والاستعانة التي هي الزاد والعدة للنجاة في يوم الدين ، أي يا من هـذا شأنه الجليل ووصفه الجميل نخصك بالعبادة والاستعانة ولا نعبد غيرك ولا نستعين به .

ففي الآيات ارتقاء من البرهان إلى العيان وانتقال من الغيبة إلى الشهود وكأن المعلوم صار عيانا والمعقول مشاهداً والغيبة حضوراً لخوطب بما تضمنته الآية الكريمة .

(إياك) ضمير منفصل مبنى على السكون في محل نصب مفعول به مقدم ، وكل ما يلحق هذا الضمير كالياء والهاء والكاف حروف زيدت لتمييز التكلم والغيبة والخطاب ، لا محل لها من الإعراب كالتاء في أنت ، وهذا رأى سيبويه وجمهور النحاة .

ويرى الخليل بن أحمد الفراهيدى أن لواحق (إيا) ليست بحروف بل كل منها اسم مضمر مضاف إليها لأنه يشبه الإسم المظهر لتقدمه على الفعل والفاعل واحتج الخليل بقول الشاعر :

إذا بلغ الرجل الستين فإيـاه وإيا الشواب[1]

---

(١) الشواب بتشديد الباء جمع شابة كدواب جمع دابة ، وهن الفتيات =

ونقول إن هذا البيت شاذ لا يعتد به ولا يعول عليه وليس بحجة معتبرة وقيل إن هذه الأحرف اللواحق هي الضمائر و (إيا) ليس بضمير وإنما هو دعامة ووصلة لها لأن هذه الأحرف لما فصلت عن عواملها تعذر النطق بها مفردة فاقترنت بها (إيا) ليمكن النطق بها وتستقل به ، فايا تشبه ألف الوصل التي يتوصل بها إلى النطق بالساكن .

ويرى الكوفيون أن المجموع ضمير : أي (إيا) ومايلحقها .

والراجح هو الرأي الأول الذي يراه الجمهور وما عداه من آراء فشاذ .

وفي (إياك) قراءات شاذة لا داعي لأن نسود القرطاس بذكرها ونضيع الوقت فيها وتكفي القراءة المتواترة المعلومة و(حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق)

(نعبد) أي نطيع ونخضع ونذل ومنه :طريق معبد أي مذلل للسالكين بالسير فيه وبعير معبد أي مذلل سهل الركوب ومنه :العبد لخضوعه وذلته لمولاه.

فالعبادة : الطاعة البالغة أقصى غاية الخضوع وأعلى مراتب التذلل مع استشعار قلب العابد عظمة المعبود وجلالة قدره وشدة حبه ، ولا يستأهلها إلا من له غاية الإفضال ونهاية الإنعام والإجلال وهو الله تعالى ، فلايجوز شرعا ولا عقلا إداء العبادة إلا لله تعالى لأنه الحقيق بذلك .

من النساء ، وفي هـذا البيت مبالغة في التحذير أي إذا وصل الرجل الستين عاما فعليه أن يقي نفسه ويربأ بها عن التعرض للفتيات الشابات وعليهن أن يقين أنفسهن ويربأن بها عن التعرض له ولمثله من الرجال .

قال العلامة الحافظ ابن كثير الدمشقي : العبادة في الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف[1] .

وفي قوله : (إياك نعبد . . .) التفات ، وهو هنا التفات من الغيبة إلى الخطاب لأن الآيات السابقة ثناء على الله تعالى واسمه الجليل مظهر والإسم المظهر من قبيل الغيبة ، ونظير هذه الآيات في الالتفات قوله تعالى في سورة الإنسان : « ... وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ، إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً »[2] .

والالتفات والتلوين في الكلام أمر بلاغي مألوف عند العرب ، كانوا يتفننون في الكلام وينتقلون من أسلوب إلى أسلوب آخر لتنشيط السامع وإيقاظه ولفت نظره لإصغائه وجذب انتباهه حتى لا يمل ولا يغفل عما يسمعه وهذه نكتة عامة في كل التفات .

أما نكتة الالتفات الخاصة هنا فهي أن العبد لما أثنى على الله بقلب حاضر زكي ثناء عاطراً بما هو أهله ارتفع قدره وسمت روحه وارتقى وظل في معراج الإرتقاء والسمو إلى أن صار قريباً من حضرته مشاهداً أنوار ألوهيته ورأى نفسه أهلا لمخاطبته فخاطبه بقوله : « إياك نعبد وإياك نستعين » .

(وإياك نستعين) : نستعين أن نطلب منك وحدك العون والتأييد والتوفيق فلا نثق إلا بك ، ولا نعتمد إلا عليك ، فالسين والتاء للطلب أي طلب المعونة والنصرة والتوفيق والسداد من أجل الاقتدار على الشيء والتمكن من فعله .

---

(١) ج ١ ص ٢٥ تفسير ابن كثير .

(٢) ٢١ ، ٢٢ سورة الإنسان .

والمعونة كما قال الإمام البيضاوى : إما ضرورية أو غير ضرورية .

والضرورية : ما لا يتأتى الفعل دونه كاقتدار الفاعل وتصوره وحصول آلة ومادة يفعل بها فيها ، وعند استجماعها وحصولها يوصف الرجل بالإستطاعة ويصح أن يكلف بالفعل .

وغير الضرورية : تحصيل ما يتيسر به الفعل ويسهل كالراحلة فى السفر للقادر على المشى ، أو يقرب الفاعل إلى الفعل ويحثه عليه ، وهذا القسم لا يتوقف عليه صحة التكليف اهـ .

قال أبو عبد الرحمن السلمى فى حقائق التفسير : سمعت محمد بن عبد الله ابن شاذان يقول : سمعت أبا حفص الفرغانى يقول : من أقر بإياك نعبد وإياك نستعين فقد برىء من الجبر والقدر[1] اهـ .

وقدم مفعولا الفعلين -- نعبد ونستعين -- للتعظيم والاهتمام بهما وكان من عادة العرب أن يقدموا الشىء الأهم على المهم فجاء القرآن على ما ألفوه ودرجوا عليه .

وللدلالة على الحصر والاختصاص ، أى أن العبادة والاستعانة مقصورة عليه سبحانه مختصة به فلا يعبد غيره ولا يستعان به .

ولأن الله مقدم فى الوجود ذاتا فقدم فى الذكر على العبادة والعابد والاستعانة والمستعين .

ولتنبيه العابد والمستعين إلى أنه ينبغى أن يوجه نظره وقلبه إلى المعبود والمستعان أولا وبالذات ثم إلى العبادة والاستعانة باعتبارهما صلة سنية سامية بينه وبين الحق جل وعلا .

---

(١) انظر جـ ١ ص ٧ تفسير البيضاوى وص ١٢٦ تفسير القرطبى .

وللمسارعة بتنبيه العابد والمستعين من أول الأمر إلى أن المعبود الحق المستعان هو الله تعالى وأن العبادة له والاستعانة به وحده حتى ينشط في الإقبال عليه وتعظيمه ولا يتكاسل أو يتوانى .

والواو في (وإياك نستعين) عاطفة جملة فعلية على جملة فعلية ، وقيل الواو للحال أي نعبدك مستعينين بك .

وكرر الضمير (إياك) للاشعار بأن العبادة مقصودة بالذات والاستعانة كذلك مقصودة بالذات أي للتنصيص على اختصاصه تعالى بكل واحدة منهما ، وللتلذذ بمناجاته تعالى وخطابه .

وقال الألوسي : التكرار للاشعار أن حيثية تعلق العبادة به تعالى غير حيثية تعلق طلب الإستعانة منه سبحانه ، ولو قال « إياك نعبد ونستعين » لتوهم أن الحيثية واحدة والشأن ليس كذلك إذ لابد في طلب الإعانة من توسط صفة ولا كذلك في العبادة فلا اختلاف التعلق أعاد المفعول ليشير به إلى اختلاف الحيثية أ هـ[1] .

وجاء الفعلان — نعبد ونستعين — مضارعين للاشارة إلى وله العابدين بالمعبود والمستعينين بالمستعان ورغبتهم الدائمة في التقرب إليه سبحانه وتجديد تلك الرغبة وترقيتها .

والضمير المستتر في الفعلين تقديره : نحن ، وهو للقارىء ومن معه من بني جنسه الذين يحضرون صلاة الجماعة ولمن يحضر الصلاة من الملائكة . أو للقارىء وكل المؤمنين ، ضم القارىء عبادته مع عبادتهم ومزج حاجته بحاجتهم راجيا قبول الدعاء وإجابته ببركتها .

---

(١) جـ ١ ص ٩٠ روح المعاني للالوسي

أو للاشارة إلى أن المؤمنين الصادقين المخلصين يكونون في اتحادهم وإخائهم كالشخص الواحد والنفس الواحدة بحيث يقوم كل واحد منهم في الحديث عن شئونهم مقام جميعهم ولذلك قال تعالى في سورة النور « .. فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم » ، وقال الرسول ﷺ « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم »(١) .

أو لأن المقام لما كان عظيما مهاباً لم يستطع الواحد منهم الاستقلال به والوقوف وحده في ميدانه استقصاراً لنفسه واستصغاراً واحتقاراً لها ، فالإتيان بالنون للدلالة على التواضع لا لتعظيم النفس .

أو لأن العبد لما أثنى على الله وارتقى وأحس بعظيم شرفه وعريض جاهه وسمو رتبته وعلو منزلته عند ربه خاطب بنون العظمة .

وجاء الفعلان — نعبد ونستعين — مطلقين ولم يذكر لكل منها متعلقه الخاص به ليدل هذا الإطلاق على العموم والشمول فتذهب النفس فيه كل مذهب أي تشمل العبادة كل معبود به ، وتشمل الاستعانة كل مستعان عليه . أو للدلالة على وقوع الفعلين وإحداثهما دون نظر إلى متعلق مخصوص نحو قوله تعالى : « وكلوا واشربوا »(٢) أي أوقعوا هذين الفعلين ونفذوهما . وجاءت العبادة مقدمة في الذكر على الإستعانة لمراعاة رؤوس الآيات

---

(١) ٦١ سورة النور . وأنظر الحديث في ج ٤ ص ١٨١ كتاب الديات باب إيقاد المسلم بالكافر : سنن أبو داود ، و ج ٢ ص ٨٩٥ كتاب الديات باب المسلمون تتكافأ دماؤهم : سنن ابن ماجه وأخرجه النسائي في سننه وأحمد في مسنده ، وهو مروى عن على بن أبي طالب وابن عباس ومعقل بن يسار عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهم .
(٢) ٣١ سورة الأعراف .

وفواصلها ، ومراعاة الترتيب فان قوله « إياك نعبد » متعلق بألوهيته تعالى « وإياك نستعين » متعلق بربوبيته فجاء قوله « إياك نعبد » مقدماً على « إياك نستعين » كما جاء لفظ الجلالة « الله » مقدماً على لفظ « رب » في الذكر.

ولأن العبادة غاية في نفسها ولأجلها خلق الله الجن والإنس وهى مع ذلك وسيلة إلى الاستعانة والإستعانة ثمرتها ومترتبة عليها ومن شأن الوسيلة أن تقدم .

وللدلالة على أن العابد لا يمكنه الاستقلال بعبادته بل عليه أن يلجأ إلى الله تعالى ويسأله أن يمنحه القدرة على عبادته ويستمد منه التأييد والتوفيق فيها.

إذا لم يكن عون من الله للفتى * فأول ما يجنى عليه اجتهاده

ويمكن أن تقول : إذا وجد شيئان وارتبط كل منهما بالآخر ارتباطاً وثيقاً كما هنا لم يختلف التقديم والتأخير .

وللعبادة درجات ثلاث :

الأولى : أن يعبد المرء الله طمعاً في ثوابه أو هرباً من عقابه ، وهذه الدرجة أدنى الدرجات لأنه يعبد الله لمنفعة تعود عليه وقد جعل الله وسيلة إلى نيل تلك المنفعة .

الثانية : أن يعبد الله للتشرف بعبادته والانتساب إليه ، وهذه الدرجة أعلى من سابقتها .

الثالثة : أن يعبد الله لألوهيته واستجماعه صفات الكمال ونعوت الجلال وقد استشعر العبد عبوديته له وافتقاره الكامل إليه ، وهذه الدرجة أعلى الدرجات لأنه عبد الله لغير غرض وبلا مأرب ، وقد أثر عن القانتة العابدة رابعة العدوية قولها تخاطب ربها : اللهم إن كنت تعلم أنى أعبدك طمعاً في جنتك فاحرمنى منها ، وإن كنت تعلم أنى أعبدك خوفاً من نارك فأدخلنى فيها ... انني أعبدك لأنك تستحق أن تعبد .

وروى فى الحديث القدسى : « لو لم أخلق جنة وناراً أما كنت أهلا لأن أعبد » . وهذه الآية آية كريمة ، جليلة القدر عظيمة ، وهى على قصرها تجمع الدين كله ولذا قال بعض السلف الصالح : « الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة — اياك نعبد واياك نستعين » .

وهو محق فيما قال اذ الجملة الأولى فيها تبرؤ صريح من الشرك والكفر بالله ، والجملة الثانية فيها تبرؤ صريح من حول العبد وطوله وقوته وفيها تفويض كامل إلى الله تعالى وكلة الأمور الى جنابه الأقدس .

وهذا المعنى المذكور فى هاتين الجملتين مذكور فى آيات أخرى كثيرة متفرقة فى القرآن الكريم كقوله تعالى فى سورة هود : « ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه »[1] وقوله تعالى : « قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا »[2] وقوله تعالى : « رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا »[3] وغيرها من الآيات المباركات .

---

(١) ١٢٣ سورة هود عليه السلام .

(٢) ٢٩ سورة الملك .

(٣) ٩ سورة المزمل

(اهدنا الصراط المستقيم)

لما تقدم الثناء على الله تعالى وخوطب باختصاصه بالعبادة والاستعانة دعا العابدون المستعينون ربهم أن يهديهم الصراط المستقيم ويثبتهم عليه ويزيد إيمانهم إيمانا وهداهم هدى فقالوا : اهدنا الصراط المستقيم .

فبين هذه الآية وبين ما قبلها شبه كمال الاتصال لأنها إيضاح وبيان للمعونة المطلوبة وتعد جوابا لسؤال مقدر وكأن الله قال : كيف أعينكم ؟ فقالوا : اهدنا الصراط المستقيم !

(اهدنا) فعل أمر بمعنى الدعاء أي ألهمنا معرفة الطريق المستقيم الواصل ووفقنا للاستقامة عليه والاستمساك به . وفعل (هدى) يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد ، وإذا تعدى إلى مفعول ثان فإنه يتعدى بحرف الجر « إلى » أو « اللام » نحو قوله تعالى : قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم»[1] . « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم »[2] .

وأحيانا يتعدى إلى المفعول الثاني بنفسه بعد حذف حرف الجر على سبيل الاتساع [3] كالآية التي معنا وقوله تعالى : « وهديناه النجدين »[4]، أو على سبيل التضمين .

---

(١) ١٦١ سورة الأعراف .

(٢) ٩ سورة الإسراء .

(٣) أي يعامل معاملة – اختار – في قوله تعالى في سورة الأعراف ١٥٥ : « واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا » أي من قومه .

(٤) ١٠ سورة البلد .

ووزن (اهدنا) الصرفي افعنا ، حذفت لام الكلمة وهي الياء .

والهداية هي الإرشاد والدلالة بلطف ورفق على مايوصل إلى البغية والمطلوب [1] ولا تستعمل هذه المادة إلا في جانب الخير ، أما قوله تعالى « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » [2] فهو وارد على سبيل التهكم والتقريع والتوبيخ فهو كقوله تعالى : « بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما » [3]، « وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » [4]، «ذق إنك أنت العزيز الكريم» [5].

وتأتى مادة الهداية بمعنى الإرشاد والدلالة والتبيين ومنه قوله تعالى: « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمي على الهدى » [6] .

وبمعنى الإلهام ومنه قوله تعالى . « ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » [7] أي ألهمه مصالحه وشئونه .

وبمعنى الدعاء ومنه قوله تعالى : ولكل قوم هاد » [8] أي داع وهذه المعاني كلها متقاربة ولاتنافى بينها .

وهداية الله تعالى لخلقه إذالوحظ فيها إفاضة النعم منه عليهم ليست محصورة

---

(١) ومادة الهداية تدل على هذا المعنى ولذا يوصف المشي برفق وتؤدة بأنه تهاد .

(٢) ٢٣ سورة الصافات .

(٣) ١٣٨ سورة النساء .

(٤) ٣ سورة التوبة .

(٥) ٤٩ سورة الدخان .

(٦) ١٧ سورة فصلت .

(٧) ٥٠ سورة طه .

(٨) ٧ سورة الرعد .

الأنواع ولا معدودة « وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها »[1] ولكنها مع كثرتها وتنوعها وتعددها يمكن إجمالها في أمور أربعة :

الأول : إفاضة القوى التي بها يتمكن المرء من الاهتداء إلى مصالحه كالقوة العقلية التي يتأتى بها الفهم والإدراك ، والحواس الباطنة التي تتميز بها صفات الإنسان كالرضا والغضب ونحوها ، والمشاعر الظاهرة المرتبطة بالحواس الظاهرة .

الثاني : إقامة الدلائل وكشفها للانسان ليستطيع التمييز بين الحق والباطل والصلاح والفساد وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا »[2]، « وهديناه النجدين »[3] .

الثالث : الهداية بارسال الرسل مبشرين ومنذرين وانزال الكتب السماوية لإخراج الناس من الظلمات إلى النور وهدايتهم إلى الحق الأبلج وفي ذلك المعنى يقول تعالى : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا »[4] ويقول : « إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم »[5] .

الرابع : أن يكشف الله لقلوب خواص خلقه مايشاء من السرائر ويطلعهم على الأشياء كما هي بالوحي أو الإلهام أو المنامات الصادقة ، وهذا الأمر يختص بنيله الأنبياء والأولياء والصالحون ، وإلى هذا المعنى يشير قوله

---

(١) ١٨ سورة النحل
(٢) ٣ سورة الإنسان .
(٣) ١٠ سورة البلد .
(٤) ٧٣ سورة الأنبياء .
(٥) ٩ سورة الإسراء

تعالى : « أولئك الذين هدى الله فبداهم اقتده »[١]، وقوله « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »[٢].

والمؤمن مع اهتدائه واستقامته على الجادة يسأل الله هدايته إلى الصراط المستقيم فى كل صلاة لعلمه أنه شديد الافتقار إلى الله فى كل لحظة ويخشى الخطأ والزلل فهو يسأله أن لايكله إلى نفسه طرفة عين وأن يثبته على الهداية إليه ويرسخ قدميه فيها وفى ذلك ضمان سعادته فى الدنيا والآخرة ، ومنه قوله تعالى : « ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا »[٣] ، وقوله ﷺ : اللهم يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك »[٤] .

أو يسأله الازدياد من الهداية ومنه قوله تعالى : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم »[٥].

(الصراط المستقيم) الصراط مفعول ثان لاهدنا ، والصراط : الطريق الواضح المستوى ، وأصله بالسين : السراط ، مأخوذ من سرط الطعام إذا ابتلعه ، وسمى الطريق السهل سراطاً لأنه يسترط السائرين فيه ويبتلعهم ويغيبهم ولذلك يسمى لقماً لأنه يلتقمهم ، والمراد به هنا الإسلام .

---

(١) ٩٠ سورة الأنعام .

(٢) ٦٩ سورة العنكبوت وانظر جـ ١ ص ٧ – ٨ تفسير البيضاوى و جـ١ ص ١٧–١٨ تفسير أبى السعود العمادى .

(٣) ٨ سورة آل عمران .

(٤) انظر جـ ٣ ص ٣٠٤ أبواب القدر باب ماجاء أن القلوب بين أصبعى الرحمن و جـ ٥ ص ١٩٩ أبواب الدعوات : سنن الترمذى وصححه ، و جـ ٢ ص ١٢٦٠ كتاب الدعاء باب دعاء رسول الله ﷺ : سنن ابن ماجه ، وأخرجه أحمد فى مسنده ، وهو مروى عن أنس بن مالك والنواس بن سمعان وأبى ذر وجابر وأم سلمة وعائشة رضى الله عنهم .

(٥) ١٧ سورة محمد ﷺ

والمناسبة بين المعنوى اللغوى للصراط والمعنى الشرعى المراد أن الإسلام يحول بين التمسك بتعاليمه وبين الشرور والآثام ويخفيه ويغيبه عن الباطل والفساد كما يغيب الطريق سالكه ويواريه .

وجمع الصراط جمع الكثرة : صرط مثل : كتاب وكتب .

ويذكر الصراط ويؤنث كالطريق والسبيل ، والتذكير لغة تميم وهى الأكثر تداولا ، والتأنيث لغة الحجاز .

وفى (الصراط) قراءات عشرية :

الأولى : السراط بالسين بحسب أصل الكلمة وهى قراءة ابن كثير برواية قنبل عنه ، ويعقوب برواية رويس عنه ، وهى لغة عامة العرب .

الثانية : الصراط بالصاد الخالصة أى بقلب السين صادا لتجانس الطاء فى الإطباق مثل : مصيطر فى « مسيطر » لأن الصاد والضاد والطاء والظاء أحرف إطباق ، وهذه القراءة لجمهور القراء وهى لغة قريش .

الثالثة : بالإشمام أى إشمام الصاد صوت الزاى وخلط الأولى بالثانية ليكون حرف الزاى أقرب إلى المبدل منه — السين ولأن الزاى أقرب إلى الطاء لكونهما مجهورتين .

وهذه القراءة لحمزة بن حبيب الزيات ، وهى لغة بنى عذرة وبنى كلب وبنى القين كما ذكر الفراء .

ومعنى (الصراط المستقيم) : الطريق الواضح السوى الخالى من الإعوجاج والإنحراف . وجاء لفظ (الصراط) مفرداً ومعرفاً بأل وموصوفاً بالاستقامة ومضافاً للدلالة على هذا المعنى وعلى أنه صراط واحد متعين .

وقال ابن عباس وأبو العالية رفيع بن مهران: الصراط المستقيم هو رسول الله

وصاحباه من بعده أبو بكر وعمر « أى طريق النبي وصاحبيه » وقال ابن مسعود وعلى بن أبي طالب . هو كتاب الله تعالى ، وقال مجاهد بن جبر : هو الحق ، وقال محمد بن الحنفية : هو دين الله الذى لا يقبل من العباد غيره . وقيل : هو العدل ، وقيل : هو العبادة لقوله تعالى : « وأن أعبدونى هذا صراط مستقيم »[1] .

وكل هذه الأقوال مقبولة لا تعارض بينها ولا تنافى ويصدق بعضها بعضاً فان من اتبع النبي ﷺ واقتدى بصاحبيه من بعده ، أو اتبع القرآن أو اتبع الحق ، أو كان عدلا فى حياته لنفسه وللناس ولم يظلم نفسه بالجرى وراء هواها وشهواتها ، أو عبد الله حق عبادته وعرفه حق معرفته وخضع لجنابه : كان مهتدياً سائراً فى طريق واضح سوى يرضى عنه الله ورسوله .

ويمكن أن نقول قولا جامعا فى المراد بالصراط المستقيم وهو : الدين الإسلامى بجميع عقائده وآدابه وأحكامه وتشريعاته التى بتطبيقها وتنفيذها يسعد الخلق كلهم فى دنياهم وأخراهم ، قال تعالى : « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا »[2] وقال: «وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السماوات ومافى الأرض »[3] .

وأخرج أحمد والترمذى وحسنه والنسائى وابن جرير الطبرى والحاكم وصححه وغيرهم بسندهم عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال : « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها

---

(١) ٦١ سورة يس .
(٢) ١٦١ سورة الأنعام .
(٣) ٥٢ ، ٥٣ سورة الشورى .

الناس أدخلوا الصراط جميعاً ولا تفرقوا ، وداع يدعو من فوق الصراط ، فاذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه فانك إن تفتحه تلجه .

فالصراط : الإسلام ، والسوران : حدود الله ، والأبواب المفتحة : محارم الله ، وذلك الداعي على رأس الصراط : كتاب الله ، والداعي من فوق : واعظ الله تعالى في قلب كل مسلم »[1] .

وليس بعد قول رسول الله ﷺ قول لأحد لأنه لاينطق عن الهوى وإن كلامه وحي يوحى من الله تعالى إليه :

ماضل عن وحي الإله وماغوى   حاشا رسول الله ينطق عن هوى
دعوا كل قول عند قول محمد   فما آمن في دينه كمخاطر

وذكر في الآية الكريمة « الصراط » ولم يذكر السبيل أو الطريق لأن للفظ الصراط » وقعا في النفس حيث يذكر بالصراط المنصوب على متن جهنم فيزداد الإنسان خوفا من ربه وخشية له ويجمع بين الرغبة والرهبة والرجاء والخوف .

(١) ج ٤ ص ٢٢٢ أبواب الأمثال باب ماجاء في مثل الله عز وجل لعباده سنن الترمذي ، و ج٤ ص١٨٢ — ١٨٣ المسند للامام أحمد ، وقال ابن كثير في تفسيره ج١ ص ٢٧ بعد إخراجه : وهو إسناد حسن صحيح

(صراط الذين أنعمت عليهم)
(غير المغضوب عليهم ولا الضالين)

هذه الآية متصلة بما قبلها لفظاً ومعنى لأن لفظ — صراط — بدل من الصراط السابق بدل الكل من الكل ويسمى أحياناً هذا البدل بالبدل المطابق أو الموافق ، وهو فى حكم تكرير العامل حيث إنه هو المقصود بالحكم .

وكرر لفظ — الصراط — لإفادة التأكيد والنص على أن صراط المنعم عليهم هو الصراط المشهود له بالاستقامة وأن الاستقامة علم له ولذلك لم يقل الله : « اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم » .

كما أن فى ذكره مرة ثانية تصريحاً وبياناً بالسالكين فى هـذا الصراط المستقيم وبيان نوعيتهم .

(الذين أنعمت عليهم) : اختلف المفسرون فى المراد بالذين أنعم الله عليهم : فقيل : هم المؤمنون مطلقاً وصراطهم الذى نطلب هدايتنا إليه هو ما توافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين دون الفروع التى اختلفت بينهم ، وقيل: هم الأنبياء ، وقيل: هم أصحاب موسى وعيسى- عليهما الصلاة والسلام- المصدقون بهما وبما جاءا به قبل تغيير التوراة والإنجيل وتحريف الكلم عن مواضعه وقبل نسخهما ، وقيل : هم أصحاب محمد ﷺ ، وقيل : هم محمد وصاحباه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .

وقال جمهور المفسرين : إنهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون ، وهذا القول هو الراجح لشموله وعمومه واندراج كل الأقوال الأخرى فيه .

ولأن الذين أنعم الله عليهم وسلكوا الصراط المستقيم جاءوا مفسرين بهذا التفسير فى سورة النساء فى قوله تعالى : « ... ولهديناهم صراطاً مستقيما ، ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا »[1] .

فآية سورة النساء تفيد أن هؤلاء المذكورين فيها على صراط مستقيم وهو المطلوب فى آية الفاتحة .

وأحسن التفاسير وأجلها وأولاها بالأخذ والقبول والتقديم تفسير القرآن بالقرآن .

هذا ، وإن المتصفح للقرآن الكريم يجد أن كل الذين أنعم الله عليهم من المسلمين وأن الإسلام ليس مقصوراً على البعثة المحمدية ولا مقيداً بها وإنما هو دين الأنبياء والرسل جميعاً فسيدنا نوح عليه السلام قال لقومه كما أخبر الله فى القرآن : « فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين »[2] .

وسيدنا إبراهيم عليه السلام أخبر الله عنه بقوله : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين »[3] .

وحينما رفع سيدنا إبراهيم القواعد من البيت ومعه ابنه إسماعيل كان من

---

(١) ٦٨ ، ٦٩ سورة النساء .

(٢) ٧٢ سورة يونس عليه السلام .

(٣) ٦٧ سورة آل عمران

دعواتهما قولهما : « . . . . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك »[1] .

ووصى إبراهيم بنيه وكذلك يعقوب بملة الإسلام والموت عليها : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون »[2] .

وقال سيدنا موسى لقومه : « يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين »[3] .

وكان من دعاء سحرة فرعون الذين آمنوا برب العالمين رب موسى وهرون : « ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين »[4] .

وكان من دعاء سيدنا يوسف قوله : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين »[5] .

ولما أحس سيدنا عيسى من قومه الكفر سألهم كما حكى القرآن : « من أنصارى إلى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون »[6] .

---

(١) ١٢٨ سورة البقرة .
(٢) ١٣٢ سورة البقرة .
(٣) ٨٤ سورة يونس عليه السلام .
(٤) ١٢٦ سورة الأعراف .
(٥) ١٠١ سورة يوسف عليه السلام .
(٦) ٥٢ سورة آل عمران .

وأخبر الله عن أهل الكتاب الذين آمنوا برسول الله محمد بقوله : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين »[1] .

بل إن تسمية أتباع رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالمسلمين ليست تسمية مستحدثة وإنما هي تسمية موجودة قبل بعثته بزمن طويل كما جاء في قوله تعالى : « وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس »[2] .

ومن هنا : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام »[3] ، و « إن الدين عند الله الإسلام »[4]، « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين »[5] .

وقال : (صراط الذين أنعمت عليهم) ولم يقل صراط الأنبياء . . . . . للايذان بأن الهداية إلى الصراط المستقيم نعمة عظمى ومنه كبرى ، ولتلذذ العبد بمناجاته ربه ومخاطبته ، وإسناد الفضل اليه مع الشهادة والإقرار به .

---

(١) ٥٢ ، ٥٣ سورة القصص .

(٢) ٧٨ سورة الحج .

(٣) ١٢٥ سورة الأنعام .

(٤) ١٩ سورة آل عمران .

(٥) ٨٥ سورة آل عمران .

والنعمة : هي لين العيش وخفضه مع استلذاذ المرء به واستحسانه .

أما الإنعام فهو : إيصال النعمة والإحسان إلى الغير شريطة أن يكون هذا الغير من العقلاء .

ونعم الله لا تحصى ومننه لا تستقصى « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » لكن يمكن حصر نعمه في جنسين : دنيوى وأخروى ، والأول قسمان : وهبي وكسبي .

والوهبي قسمان :

١ – روحاني : كنفخ الروح فيه وتنويره بالعقل وما يتبعه من القوى المدركة كالفهم والفكر والنطق .

٢ – جسماني : كتخليق البدن والقوى الحالة فيه والهيئات العارضة له كالصحة وسلامة الأعضاء .

والكسبي : تخلية النفس وإبعادها عن الرذائل وتحليتها بالأخلاق السامية والملكات الفاضلة وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحلى المستحسنة وحصول الجاه والمال .

والثاني : أن يغفر الله له ما فرط منه ويرضى عنه ويبوئه في أعلى عليين مع الملائكة المقربين أبد الآبدين .

والمراد هو القسم الثاني الأخير وكل ما يكون وصلة ووسيلة إلى نيله والفوز به من القسم الأول بأنواعه لأن ما عدا ذلك يشترك فيه المؤمن الكافر والبر والفاجر (١) .

---

(١) أنظر جـ ١ ص ٨ تفسير البيضاوى و جـ ١ ص ١٨ تفسير أبي السعود.

وجاء الفعل — أنعمت — ماضيا إشارة إلى ثبوت الإنعام وتحقق وقوعه.

وجاء مطلقاً ولم يذكر المنعم به لتذهب النفس فيه كل مذهب ويعم ويشمل كل ما أنعم الله به على المهديين إلى الصراط المستقيم.

ومن حق هذا الفعل أن يعدى بحرف الجر — إلى — لما فيه من معنى الإيصال والإنهاء ولكنه عدى هنا بحرف الجر — على — لتضمين الفعل معنى التفضل وللاشارة إلى رقى المنعم وسمو قدره وعلو مكانته وعظيم شأنه ورتبته ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اليد العليا خير من اليد السفلى»[1].

(غير المغضوب عليهم ولا الضالين): — غير — بالجر بدل من (الذين أنعمت عليهم) بدل الكل من الكل ويكون المعنى: أن المنعم عليهم هم الذين سلموا ونجوا من غضب الله والضلال، إذ البدل فى نية طرح المبدل منه وإقامته مقامه.

ولا ريب أن سلامتهم مما ابتلى به غيرهم منه عظيمة ونعمة جليلة.

أو صفة (للذين) ويكون المعنى: أن المنعم عليهم جمعوا بين نعمتين: نعمة الإيمان ونعمة السلامة والنجاة من غضب الله والضلال.

والذى جوز وقوع — غير — صفة للمعرفة (الذين) مع توغل غير فى الإبهام أحد أمرين:

---

(١) جـ٢ ص ١٣٩ — ١٤٠ كتاب الزكاة باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى: صحيح البخارى، جـ٣ ص ٧٣ كتاب الزكاة باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى: صحيح مسلم بشرح النووى، وأخرجه أبو داود والنسائى ومالك، وهو مروى عن عبد الله بن عمر وحكيم بن حزام وأبى هريرة رضى الله عنهم.

الأول : أن اسم الموصول أجرى هنا مجرى النكرة فلم يقصد به أشخاص معينون لذا صار مثل : غير .

فاسم الموصول هنا يشبه الاسم المحلى بأل فى قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار »[1] ، وقول الشاعر

ولقد أمر على اللئيم يسبنى فمضيت ثمت قلت لا يعنينى[2]

فليس المراد بالليل فى الآية الكريمة ليلا معيناً معهوداً بل المراد جنس الليل ، وليس مراد الشاعر لئيم معيناً معروفاً بل المراد مطلق لئيم ، فلذا صح وقوع جملتى (نسلخ ، يسبنى) صفتين لما قبلها .

الثاني : أن لفظ - غير - ليس نكرة هنا وإنما هو معرفة لأنه مضاف وواقع بين معرفتين متضادتين لا وسط بينهما : المعرفة الأولى المنعم عليهم ، المعرفة الثانية المقابلة لها : المغضوب عليهم ، ولاشتهار المغايرة بين الصنفين المتضادين كانت - غير - معرفة وصح وقوعها صفة لاسم الموصول .

ونحو هذا قولك : مررت بالحى غير الميت ، رأيت القائم غير القاعد . عليك بالحركة غير السكون ... الخ .

(المغضوب عليهم) : - المغضوب - : اسم مفعول مشتق من الغضب ومعناه فى اللغة الشدة ، يقال « رجل غضوب » إذا كان شديد الخلق قوية ويطلق لفظ (الغضوب) على الحية الخبيثة لشدتها وشراستها ، وعلى الناقة العبوس الوجه ، ويطلق لفظ (الغضبة) على الصخرة الصلدة الصلبة الشديدة المستقرة فى الجبل .

---

(١) ٣٧ سورة يس .

(٢) هذا البيت لشاعر من بنى سلول يصف نفسه بالترفع والاحترام والوقار والصبر وكظم الغيظ والعفو عن المسىء وعدم إيذائه أحداً .

ويراد به : غليان دم القلب وهيجان النفس وثورانها وظهور آثار ذلك على الوجه إرادة الانتقام ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إتقوا الغضب فانه جمرة تتوقد فى قلب ابن آدم ألم تروا إلى إنتفاخ أوداجه وحمرة عينيه »[1] .

والغضب بهذا المعنى محال وصف الله تعالى به لأنه منزه عن مشابهة الحوادث « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » ولذلك قال السلف عن غضب الله : إنه صفة قديمة لله سبحانه تليق بجلال ذاته ونحن لانعلم حقيقتها ولا كيفيتها ونمرها على ظاهرها كما جاءت من غير تمثيل ولا تعطيل وهو كما وصف نفسه .

وفى هذا المذهب التعظيم لله تعالى والتسليم لمراده والتفويض إليه والإحكام والأمن والسلامة فى العقيدة .

أما الخلف الذين أولوا فقالوا : إن اتصاف الله تعالى بالغضب يراد به غايته ونتيجته أى إرادة الإنتقام من العاصين المكذبين ، وعلى هذا فالغضب صفة لذاته تعالى .

أو يراد به إنزال العقاب بهم والإنتقام منهم كما يعاقب الملك الغضبان وينتقم ممن عصاه وخالفه من رعيته ، وعلى هذا فالغضب صفة لفعله ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الصدقة لتطفيء غضب الرب »[2] .

---

(١) ج ٣ ص ٣٢٨ أبواب الفتن باب ما أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة : سنن الترمذى وحسنه ، و ج ٣ ص ١٩ المسند للامام أحمد ، وهو مروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٢) ج ٢ ص ٨٦ أبواب الزكاة باب ما جاء فى فضل الصدقة : سنن الترمذى وهو مروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

وعلى مذهب الخلف المصرحين بالتأويل يكون الكلام من باب المجاز من إطلاق إسم السبب وإرادة المسبب .

وهذا التأويل سائغ لايصادم اللغة والشرع والعقل لأنه تأويل بمعنى مجازى معروف فى اللغة متلائم مع قواعدها وأساليبها المعهودة لدى العرب خال من التكلف ومراعى فيه المعنى اللائق بذات الله سبحانه ولانجزم بأنه هو المعنى المراد لله .

وجاء لفظ ـ المغضوب ـ اسم مفعول ولم يسند إلى الله الغضب صراحة كما أسند إليه الإنعام ـ أنعمت ـ تأدبا مع الله وإجلالا وتعظيما لجنابه ، وإشعارا بأنهم ليسوا أهلا لمخاطبته وفى هذا إهانة لهم وحط لشأنهم ، ولأن المقام مقام تلطف واستعطاف وتذلل وطلب هداية ونعمة ممن لايملكها إلا هو فلا يليق أن ينسب إليه الشر ـ الغضب ـ ويسند إليه صراحة وإن كان مرادا له واقعاً منه .

ولهذا نظائر كثيرة فى القرآن كقوله تعالى : « الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين »[1] : حيث أسند الخليل إبراهيم الخلق والهداية والإطعام والسقى والشفاء إلى الله ولم يسند إليه المرض أى لم يقل : وإذا أمرضنى .

وقوله تعالى : « وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا »[2] : فأسندت الجن الرشد إليه سبحانه ولم تسند اليه الشر أى لم تقل : أشر أراد بهم ربهم .

فالخير يسند إليه تقرباً والشر لايسند إليه تأدبا والكل منه .

---

(١) ٧٨ ، ٨٠ سورة الشعراء .

(٢) ١٠ سورة الجن .

(ولا الضالين) : الضلال في اللغة يأتي بمعنى الهلاك ومنه قوله تعالى « وقالوا أ إذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد »[1] ، أي هلكنا وصرنا تراباً ، ويأتي بمعنى الغيبة والتيه ومنه قولهم : « ضل اللبن في الماء » أي غاب وتاه ، ويأتي بمعنى الإبطال والإحباط ومنه قوله تعالى : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم »[2] أي أبطلها وأحبطها ، ويأتي بمعنى النسيان ومنه قوله تعالى : فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى »[3] أي تنسى .

وهذه المعاني تكاد تكون متقاربة .

ويراد به هنا : العدول عن الطريق السوي المستقيم وهو طريق الحق . والمناسبة بين هذا المعنى المراد وبين المعاني اللغوية السابقة ظاهرة واضحة .

وأدنى الضلال وأقله إنما الزلات والصغائر ، وأقصاه وأعظمه جرما الكفر والشرك بالله « إن الشرك لظلم عظيم »[4] .

وأختلف العلماء في المراد بالمغضوب عليهم والمراد بالضالين :

فقيل : المغضوب عليهم هم المشركون ، والضالون « هم المنافقون » .

وقيل : المغضوم عليهم من أخطأوا في الأعمال الظاهرة وهم الفساق . والضالون من أخطأوا في الأعتقاد ، وهذا يشمل المشركين وكل المفسدين .

وقيل : المغضوب عليهم المتبعون للبدع والهوى ، والضالون من ندوا عن طريق الهدى .

---

(١) ١٠ سورة السجدة .
(٢) ١ سورة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
(٣) ٢٨٢ سورة البقرة .
(٤) ١٣ سورة لقمان .

وقيل المغضوب عليهم عامة الكفار ، والضالون عصاة المسلمين .

وقيل : المغضوب عليهم كل العصاة ، و الضالون هم الجاهلون بالله : لأن من أنعم الله عليه هو الجامع بين معرفة الحق لذاته و بين معرفة الخير للعمل به، وهذا النوع يقابله من إختلت إحدى قوتيه : القوةالعاقلةالعالمة والقوةالعاملة ، والمخل بالقوة العاملة — أى بالعمل — فاســق عاص مغضوب عليه لقوله تعالى فيمن قتل غيره عمداً : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه »[1] .

والمخل بالقوة العاقلة العالمة ـ أى بالعلم ـ جاهل ضال لقوله تعالى : فماذا بعد الحق إلا الضلال »[2] .

ويرى جمهور المفسرين أن المراد بالمغضوب عليهم : اليهود ، و بالضالين : النصارى[3] .

ويشهد لهذا الرأى قوله الله عن اليهود...«فباءوا بغضب على غضب»[4]، « قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت»[5] .

---

(١) ٩٣ سورة النساء .

(٢) ٣٢ سورة يونس عليه السلام .

(٣) كل من اليهود والنصارى مغضوب عليه ضال لـكن أخص أوصاف اليهود والغالب عليهم الغضب ، وأخص أوصاف النصارى والغالب عليهم الضلال ، فـكل طائفة وسمت بأشهر صفاتها ونعتت بأخصها .

(٤) ٩٠ سورة البقرة .

(٥) ٦٠ سورة المائدة .

وقوله عن النصارى : « ... ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل »[1] .

وما أخرجه أحمد والترمذى وحسنه وابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن حبان فى صحيحه بأسانيدهم عن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إن المغضوب عليهم هم اليهود وإن الضالين هم النصارى)[2] .

قال الحافظ ابن كثير بعد ذكره لحديث عدى بن حاتم : وقد روى حديث عدى هذا من طرق وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها اهـ .

واعتراف اليهود والنصارى وإقرارهم بذلك فقد جاء فى كتب السيرة والتاريخ أن زيد بن عمرو بن نفيل لما خرج مع جماعة من أصحابه إلى الشام يريدون الدين الحنيف والملة الحقيقية والتقى باليهود والنصارى قال له اليهود : إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ، فقال لهم: أنا من غضب الله أفر ، وقال له النصارى : إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله ، فقال لهم : لا استطيعه واستمر زيد على فطرته مجانباً عبادة الأوثان وضلال المشركين[3] .

---

(١) ٧٧ سورة المائدة .

(٢) انظر جـ ٤ ص ٣٧٨ المسند للامام أحمد ، وجـ ٤ ص ٢٧١ – ٢٧٢ أبواب تفسير القرآن تفسير سورة الفاتحة : سنن الترمذى ، وروى هذا الحديث أيضاً عند ابن مردويه عن أبى ذر وعند ابن جرير عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم .

(٣) انظر جـ١ ص ٢٩ ، ٣٠ تفسير ابن كثير .

وبما تقدم تعلم أن تفسير هذين اللفظين باليهود والنصارى متعين ومتحتم وهو الذى اتفق عليه فطاحل المفسرين وجهابذتهم وقال به جمهورهم .

قال ابن أبى حاتم : لا أعلم خلافاً بين المفسرين – يعنى المحققين المعتبرين – فى تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى[1] اهـ .

وكل الآراء السابقة الذكر تدور فى فلك رأى الجمهور ولا تعد مخالفة للمأثور عن رسول الله صلى الله عليـه وآله وسلم لأنها ليست تعيينا وحصراً للمراد من اللفظين وإنما هى من قبيل تفسير العام ببعض أفراده مع التمثيل له .

وقد ورد فى القرآن الغضب والضلال لجميع الكفار على العموم كقوله تعالى : « .... من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم »[2] ، وقوله : « إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيداً »[3] .

وورد فى القرآن لليهود والنصارى على الخصوص ، فتفسير اللفظين بهما تفسير بأخص صفة وأشهرها فيهما كما علمت .

وانقسام خلقه تعالى إلى ثلاث طوائف : طائفة منعم عليها ، وطائفة مغضوب عليها ، وطائفة ضالة انقسام بحسب معرفتهم للحق وموقفهم منه بعد إرسال الرسل: فالطائفة المنعم عليها علمت الحق وعملت به ، والطائفة المغضوب عليها علمت الحق وعاندت وجحدت ، والطائفة الضالة جاهلة بالحق تائهة عن الهدى متبعة للهوى .

---

(١) جـ ١ ص ٣٠ تفسير ابن كثير .
(٢) ١٠٦ سورة النحل .
(٣) ١٦٧ سورة النساء .

وقدم المغضوب عليهم على الضالين في الذكر والترتيب : مراعاة لرؤس الآيات ونظمها ، ولأن زمن المغضوب عليهم وهم اليهود سابق على زمن الضالين وهم النصارى ، ولأن بين الإنعام والغضب تقابلا معنوياً إذ في الإنعام إيصال الخير إلى المنعم عليه وفي الغضب إيصال الشر إلى المغضوب عليه ، ولأن اليهود أشد عناداً وأعظم فساداً وأكثر عداوة للمؤمنين وفضائحهم كثيرة ومخازيهم موفورة كبيرة ولذا ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، أما النصارى فهم أقل منهم في ذلك وأقرب الناس مودة للمؤمنين ولذا وصف النصارى بالضلال والضال قد يهتدي ويرشد ، ولأن اليهود صرحوا بالكفر بنبيين : عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، أما النصارى فصرحوا بالكفر بنبي واحد هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم[1] .

و (لا) حرف نفي جيء به لتأكيد ما في (غير) من معنى النفي فكأن الله قال : لا المغضوب عليهم ولا الضالين ، ولئلا يتوهم متوهم أن (الضالين) معطوف على (الذين أنعمت) ولذلك قرأ عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وأبي بن كعب « وغير الضالين » لدفع هذا الوهم ، وهي قراءة شاذة تفسيرية توضيحية ، وللاشعار بأنه يجب اجتناب كل من الملتين على حدة .

وقد تضمنت هاتان الآيتان الكريمتان الرد على القدرية والمعتزلة ومن سار في ركابهم ممن يعتقدون أن الإنسان حر مختار خالق لأفعال نفسه غير محتاج في صدورها عنه إلى ربه تعالى .

---

(١) الكفر بنبي واحد أو رسول واحد يعد كفراً بكل الأنبياء والرسل بل كفرا بمرسلهم وهو الله تعالى ، لذا أمرنا الله بالإيمان بكل الأنبياء والرسل وعدم التفرقة في الإيمان بهم واقرأ في ذلك الآيات رقم ١٣٦ ، ٢٨٥ سورة البقرة ورقم ١٥٠ و ١٥١ سورة النساء وغيرها من الآيات المبثوثة في القرآن الكريم .

لأن هاتين الآيتين بينتا أنهم يطلبون من الله فى كل صلاة أن يهديهم إلى الصراط المستقيم ويسألونه أن لا يغضب عليهم ولا يضلهم ، كما بينت الآية التى قبلهما أنهم يستعينون به ويلجأون إليه فى كل أحوالهم وأمورهم ، فلو كان الأمر راجعاً إليهم وحدهم والاختيار بأيديهم دون ربهم لاستغنوا عنه ولما سألوه ودعوه بهذا الدعاء وكرروه .

وقد جاء فى القرآن آيات كثيرة صرحت بأن الهداية والإضلال من الله وحده وأن الخلق والأمر له خاصة مثل : « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً »[1] « من يضلل فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون »[2] « ألا له الخلق والأمر »[3] « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة »[4] « والله خلقكم وما تعملون »[5] ،وغيرذلك من الآيات .

والمعنى : دلنا وأرشدنا ياربنا يامن تعهدتنا بالرعاية والتربية إلى طريقك السوى المعتدل الذى يوصلنا إلى السعادة والفلاح فى الدنيا والآخرة ويجعلنا مع الذين أنعمت عليهم من خلقك ورضيت عنهم ووفقتهم لسلوك ذلك الطريق العظيم ، وباعد بيننا وبين طريق الذين مقتهم وغضبت عليهم من الخلق لسوء أعمالهم وقبح تصرفاتهم ، وطريق الذين انغمسوا فى الضلالات وتاهوا فى فى حالك الظلمات فحادوا عن الحق المبين وضلوا ضلالا بعيداً .

---

(١) ١٧ سورة الكهف .

(٢) ١٨٦ سورة الأعراف .

(٣) ٥٤ سورة الأعراف .

(٤) ٦٨ سورة القصص .

(٥) ٩٦ سورة الصافات .

هذا ، وينبغي لقارىء سورة الفاتحة أن يختمها بلفظ (آمين) ، وهو اسم فعل بمعنى : استجب وتقبل ، مبنى على الفتح لالتقاء الساكنين ، وفيه لغتان مشهورتان : مد ألفه ويكون على وزن (فاعيل) مثل : ياسين ، وقصر ألفه ويكون على وزن (فعيل) مثل : يمين .

وقد أجمع العلماء على أن هـذا اللفظ ليس من الفاتحة ولا من القرآن بدليل أن الصحابة لم يثبتوه في المصاحف[1] لـكن يسن ختم سورة الفاتحة به ودلت على ذلك السنة الصحيحة الصريحة الثابتة تواتراً ، فمن ذلك ما أخرجه أحمد والنسائي وأبو داود وابن ماجه والترمذي وحسنه والحاكم وصححه بأسانيدهم عن وائل بن حجر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقال آمين مد بها صوته[2] .

وأخرج ابن ماجه بسنده عن علي بن أبي طالب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قال ولا الضالين قال آمين[3] .

وأخرج أبو داود بسنده عن أبي هريرة قال : كان رســـول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا تلا : غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال آمين حتى يسمع من يليه من الصف الأول[4] .

---

(١) وعلى القارىء أن يسكت سكتة لطيفة ويقف على (الضالين) حتى يتميز القرآن مما ليس بقرآن ، ويستحب كذلك ختم الدعاء بكلمة « آمين » .

(٢) جـ ١ ص ٢٤٦ كتاب الصلاة باب التأمين وراء الإمام : سنن أبي داود ، وجـ ١ ص ٢٧٨ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب الجهر بآمين : سنن ابن ماجه ، وجـ١ ص١٥٧ أبواب الصلاة باب ما جاء في التأمين : سنن الترمذي .

(٣) الموضع السابق في سنن ابن ماجه .

(٤) الموضع السابق في سنن أبي داود .

وأخرج مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه بأسانيدهم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا قرأ - يعني الإمام - غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله[١].

وأخرج الشيخان وأصحاب السنن وغيرهم بأسانيدهم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إذا أمن الامام فأمنوا فانه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ماتقدم من ذنبه[٢].

وأخرج أحمد وابن ماجه والبيهقي بسند صحيح عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ماحسدتكم اليهود على شيء ماحسدتكم على السلام والتأمين[٣].

وإذا كان النطق بالتأمين مستحبا في غير الصلاة فهو في الصلاة آكد وأشد استحبابا.

وقد أختلف الفقهاء في كلمة - آمين :-

هل يجهر بها المصلي في الصلاة الجهرية أو لا، وهل يقولها الإمام أو لا، وهل يجهر بها أو لا.

---

(١) ج ٢ ص ٤٤ كتاب الصلاة باب التشهد في الصلاة: صحيح مسلم بشرح النووي، و ج١ ص ٢٥٥ كتاب الصلاة باب التشهد: سنن أبي داود، و ج ١ ص ٢٧٦ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب إذا قرأ الامام فأنصتوا سنن ابن ماجه، وهو مروي عن أبي هريره أيضا.

(٢) ج ١ ص ١٨٧ كتاب الأذان باب جهر الامام بالتأمين و ج٨ ص١٠٦ كتاب الدعوات باب التأمين: صحيح البخاري، وج ٢ ص ٥١ كتاب الصلاة باب التسميع والتحميد والتأمين: صحيح مسلم بشرح النووي، وأخرجه أصحاب السنن ومالك في كتاب الصلاة.

(٣) ج ٦ ص ١٣٥ المسند للامام أحمد، و ج ١ ص ٢٧٨ -٢٧٩ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب الجهر بآمين: سنن ابن ماجه، وروي عن ابن عباس أيضا.

ولكل أصحاب مذهب رأيهم وأدلتهم ، وتفصيل القول فى هذه المسألة بذكر آراء الفقهاء فيها وعرض أدلتهم ، والجمع بينها أو ترجيح ما يستحق الترجيح منها ليس هنا مجاله وموطنه ، فمن شاء فليرجع إلى أمهات الكتب التى عنيت بتفسير آيات الأحكام وإلى كتب الفقه المطولة .

وإن المتأمل فى هذه السورة العظيمة يجد أنها أم القرآن حقا لاشتمالها مع الإيجاز - على كل ما فيه .

فجميع ما فى القرآن من تمجيد لله تعالى وثناء عليه يندرج تحت جملة (الحمد لله) وجميع ما فيه من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ونعوته العظمى يندرج تحت كلمة (رب) .

وجميع ما فيه من ذكر المخلوقات يندرج تحت كلمة (العالمين) .

وجميع ما فيه من عفو وصفح وغفران ومسامحة وإحسان يندرج تحت قوله (الرحمن الرحيم) .

وجميع ما فيه من الوعد والوعيد وأحوال يوم القيامة يندرج تحت قوله (مالك يوم الدين) .

وجميع ما فيه من الطاعة والعبادة يندرج تحت جملة (إياك نعبد) .

وجميع ما فيه من سؤال وتضرع وإخلاص وتبرء من الحول والطول يندرج تحت جملة (وإياك نستعين) .

وجميع ما فيه من سؤال الهداية والرشاد والسداد والخوف من سوء الخاتمة يندرج تحت جملة (اهدنا الصراط المستقيم) .

وجميع ما فيه من الإنعام والإكرام ومن المنعمين والمكرمين والمقربين والمحبوبين والترغيب فى العمل الصالح يندرج تحت قوله (صراط الذين أنعمت عليهم) .

وجميع مافيه من ذكر العاصين والمبغوضين والتحذير من مسالكهم يندرج تحت قوله (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

ويجد أنها قد اشتملت كذلك على أربعة أنواع من العلوم هي كما قال الطيبي مناط الدين :

الأول : علم الأصول : ومعاقده . معرفة الله تعالى وصفاته وإليه الإشارة بقوله . الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) ، ومعرفة النبوات وإليه الإشارة بقوله (أنعمت عليهم) ، ومعرفة المعاد وإليه الإشارة بقوله (مالك يوم الدين).

الثاني : علم الفروع وأعظمه العبادات وإليه الإشارة بقوله (إياك نعبد) .

والعبادات مالية وبدنية وهما مفتقرتان إلى أمور المعاش من المعاملات والمناكحات ولابد لها من الحكومات فتمهدت الفروع على الأصول وارتبطت بها.

الثالث : علم تحصيل الكمالات وهو علم الأخلاق الذي يحلي الإنسان ويزينه ويسعده وإليه الإشارة بقوله (وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم) .

الرابع : علم القصص والأخبار عن الأمم السابقة السعداء منهم والأشقياء وبه تكون العبرة والعظة وإليه الإشارة بقوله (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولاالضالين)[1].

ويلاحظ المتأمل في هذه السورة كذلك أن أولها مشتمل على حمد الله والثناء عليه ، وآخرها مشتمل على ذم المعرضين عن الإيمان به والمتأبين عن طاعته والانتظام في سلك هدايته ، وهذا يدل على أن الإقبال على الله بصدق رأس السعادة ومصدر الخير ومنبع البر ، وعلى أن الإعراض عن الله والانسلاخ من طاعته وهدايته باب الشقاء ومصدر البلاء ومبعث الداء ومهبط الآفات وموطن الموبقات .

---

(١) انظر ج ٤ ص ٦١٣ حاشية الجمل على تفسير الجلالين .

وأن نصفها الأول في معرفة الربوبية ، ونصفها الثاني في معرفة العبودية .
وإذا اجتمع للعبد معرفة بالربوبية ثم معرفة بالعبودية استنار قلبه وانشرح صدره وشفت روحه وبلغ أسمى المقامات ونال أشرف الدرجات

وبما تقدم تعلم أن هذه السورة جديرة بأن تكون مقدمة القرآن المجيد وفاتحته ، وأساسه وأمه .

نفعنا الله بأسرارها وأفاض علينا من بركاتها

تم تفسير سورة الفاتحة ولله الحمد والمنة ومنه العون والتوفيق .



المراجع

١ — القرآن الكريم .

٢ — الإتقان فى علوم القرآن لجلال الدين عبد الرحمن السيوطى ت ٩١١ هـ ، وبهامشه « إعجاز القرآن » للقاضى الباقلانى ط الثالثة ١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة .

٣ — إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للامام أبى السعود محمد بن محمد العمادى ت ٩٥١ هـ مطبعة عبد الرحمن محمد بالقاهرة .

٤ — أسباب نزول القرآن لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى ت ٤٦٨ هـ بتحقيق السيد أحمد صقر ط الأولى ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م نشر لجنة إحياء التراث الإسلامى

٥ — أنوار التنزيل وأسرار التأويل للامام أبى الخير عبد الله بن عمر البيضاوى ت ٧٩١ هـ وبهامشه « تفسير الجلالين » : جلال الدين المحلى ت ٨٦٤ هـ وجلال الدين السيوطى ت ٩١١ هـ ط الأولى ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة .

٦ — البحر المحيط لأبى حيان محمد بن يوسف الأندلسى الغرناطى ت ٧٤٥ هـ وبهامشه « النهر الماد من البحر » له ، و « الدر اللقيط من البحر المحيط » لتلميذ أبى حيان تاج الدين أحمد بن عبد القادر الحنفى ت ٧٤٩ هـ ط. الثانية ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م دار الفكر للطباعة والنشر .

٧ — تفسير القرآن العظيم للحافظ أبى الفدا إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى ت ٧٧٤ هـ مطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة .

٨ – التفسير الكبير لفخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر الرازى ت ٦٠٦ ط الثانية المطبعة البهية المصرية .

٩ – الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي ت ٦٧١ هـ بتصحيح الشيخ إبراهيم أطفيش مطبعة دار الشعب بالقاهرة .

١٠ – جامع البيان عن تأويل آى القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبرى ت ٣١٠ هـ ط الثالثة ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة.

١١ – الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير لجلال الدين السيوطى ، وبهامشه « كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق » للمناوى المطبعة الخيرية بالقاهرة ١٣٠٦ هـ .

١٢ – روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى لشهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى ت ١٢٧٠ هـ دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م.

١٣ – زهر الربى للسيوطى على المجتبى للنسائى (سيأتى فى رقم ١٩) .

١٤ – سنن أبى داود : سليمان بن الأشعث السجستانى ت ٢٧٥ هـ بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد دار الفكر للطباعة والنشر .

١٥ – سنن ابن ماجه : أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ت ٢٧٥ هـ بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى مطبعة عيسى البابى الحلبى ١٩٧٢ م .

١٦ – سنن الترمذى : الحافظ أبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة ت ٢٧٩ هـ بتحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف والشيخ عبد الرحمن محمد عثمان مطبعة المدنى ، ومطبعة الفجالة بالقاهرة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م :

١٧ – سنن الدارمى : أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام ت ٢٥٥ هـ دار إحياء السنة النبوية .

١٨ – السنن الكبرى للبيهقى أبى بكر أحمد بن الحسين بن على ت ٤٥٨ هـ وفى ذيله « الجوهر النقى » لعلاء الدين بن على الماردينى الشهير بابن التركمانى

ت ٧٤٥ هـ ط الأولى مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٤٦هـ.

١٩ — سنن النسائي « المجتبى » للحافظ أبي عبد الرحمن بن شعيب ت٣٠٣هـ ومعه « زهر الربى » للسيوطي مع تعليقات مقتبسة من حاشية أبي الحسن السندي ط الأولى ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤ م مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

٢٠ — صحيح البخاري: أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ت ٢٥٦هـ مطبعة دار الشعب بالقاهرة ١٣٧٨ هـ

٢١ — صحيح مسلم : للامام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري ت ٢٦١ هـ ومعه « شرح النووي » وهو الإمام يحيى بن شرف النووي الشافعي ت٦٧٦هـ بتحقيق عبد الله أحمد أبو زينة مطبعة دار الشعب .

٢٢ — عناية القاضي وكفاية الراضي علي تفسير البيضاوي ، ويشتهر هذا الكتاب النفيسي باسم : « حاشية الشهاب » وهو للعلامة الإمام أحمد شهاب الدين الخفاجي دار صادر بيروت .

٢٣ — فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للامام محمد بن علي بن محمد الشوكاني ت ١٢٥٠ هـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤ م .

٢٤ — الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية للشيخ سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل ت ١٢٠٤ هـ ويشتهر هذا الكتاب القيم باسم : « حاشية الجمل » وبهامشه « تفسير الجلالين » ، وإملاء ما من به الرحمن لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري ت ٦١٦ هـ مطبعة عيسى البابي الحلبي .

٢٥ — الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ت ٥٣٨ هـ وبذيله

حاشية السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني ، و « الإنصاف من الكشاف »
لأحمد بن المنير الإسكندري دار المعرفة للطباعة بيروت .

٢٦ — مدارك التنزيل وحقائق التأويل لعبد الله بن أحمد النسفي ت ٧٠١هـ
مطبعة عيسى البابي الحلبي .

٢٧ — المسند للامام أحمد بن حنبل الشيباني ت ٢٤١هـ وبهامشه « منتخب
كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال » ط الثانية ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م المكتب
الإسلامي للطباعة والنشر بيروت .

٢٨ — المصنف للحافظ أبي بكر عبد الرازق ابن همام الصنعاني اليمني
ت ٢١١ هـ بتحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي ط الأولى ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢م
المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بيروت .

٢٩ — الموطأ للامام مالك بن أنس ت ١٧٩ هـ بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي
مطبعة دار الشعب .

٣٠ — نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول لأبي عبد الله محمد الحكيم
الترمذي من علماء القرن الثالث الهجري دار صادر بيروت .

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
— تفسير (مالك يوم الدين) :	٥٠
مناسبتها لما قبلها .	٥٠
القراءتان المتواترتان فى « مالك » وتوجيههما .	٥٠
أى القراءتين أبلغ والراجح فى المسألة .	٥١
الفرق بين صفة الذات وصفة الفعل بالنسبة إلى الله تعالى .	٥٢
معنى « يوم الدين » ، والمراد به .	٥٣
سر اختصاص (يوم الدين) بالملكية .	٥٥
سر اختصاص (يوم الدين) بالذكر .	٥٥
يوم الدين حتمى الوقوع وآت لا ريب فيه .	٥٦
الوصف بالملكية والملكية خاص بالله تعالى .	٥٧
سر ذكر الصفات الأربع بعد جملة (الحمد لله) .	٥٩
— تفسير (إياك نعبد وإياك نستعين) :	٦١
مناسبتها لما قبلها .	٦١
رأى النحاة فى (إياك) .	٦١
معنى (نعبد) .	٦٢
المراد بالعبادة .	٦٢
الالتفات الموجود فى الآية ونكتته .	٦٣
معنى (نستعين) .	٦٣
المعونة نوعان : ضرورية وغير ضرورية .	٦٤
سر تقديم مفعولى الفعلين (نعبد — ونستعين) .	٦٤

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
اختلاف المفسرين فى المراد بالذين أنعم الله عليهم والرأى الراجح فيهم ودليله .	٧٦
كل الذين أنعم الله عليهم من المسلمين والإسلام دين الأنبياء والرسل جميعاً .	٧٧
معنى النعمة والإنعام .	٨٠
نعم الله على كثرتها محصورة فى جنسين .	٨٠
سر مجىء « أنعمت » ماضيا ومطلقاً وسر تعديته بحرف الجر « على » .	٨١
إعراب « غير » مع توجيه المعنى .	٨١
معنى الغضب فى اللغة ، والمراد به .	٨٢
توجيه اتصافه تعالى بهذه الصفة .	٨٣
سر مجىء الغضب بصيغة اسم المفعول .	٨٤
معنى الضلال والمراد به هنا .	٨٥
اختلاف العلماء فى المراد بالمغضوب عليهم والمراد بالضالين .	٨٥
الرأى الراجح ودليله .	٨٦
الحكمة فى تقديم المغضوب عليهم على الضالين فى الذكر .	٨٩
الكفر برسول واحد كفر بكل الرسل وبالمرسل سبحانه .	٨٩
فى الآيتين الكريمتين الأخيرتين من السورة رد على القدرية ومن حطب فى حبلهم .	٨٩
ـــ ينبغى لقارىء هذه السورة أن يختمها بلفظ (آمين) وليس هذا اللفظ من السورة ولا من القرآن .	٩١

الموضوع	الصفحة
معناه .	٩١
بعض الأدلة على استحباب ختم السورة به .	٩١
— هذه السورة أم القرآن بحق لاحتوائها مع الإيجاز على جميع مافيه	٩٣
اشتمال السورة على أربعة أنواع من العلوم هى مناط الدين .	٩٤
المراجع .	٩٧
فهرس الكتاب .	١٠١



رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٤٠٦ / ١٩٨٢ م